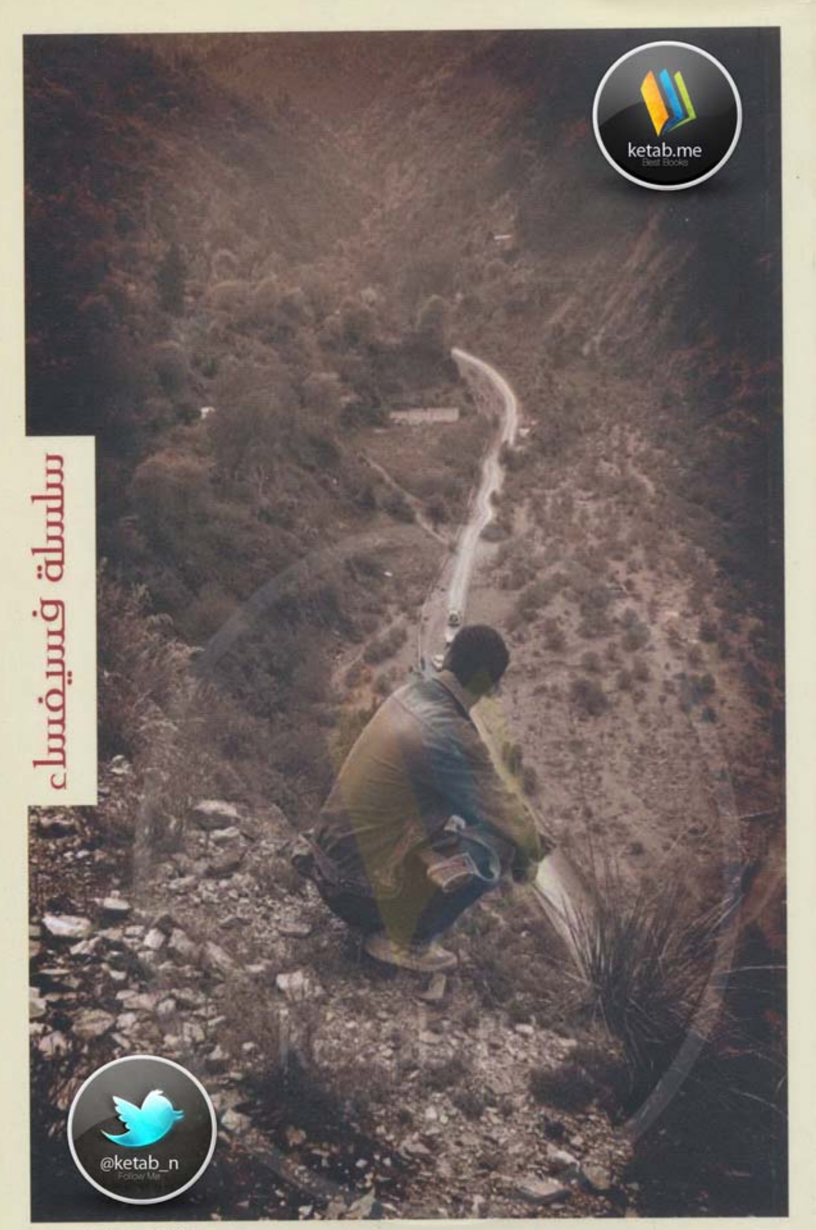


27.9.2013

ياسمينة خضرا

خرفان المولى

رواية

منشورات
الفارابي

ياسمينة خضرا



خرفان المولى

رواية

ترجمة: محمد ساري

الفارابي ـ سيديا

خرفان المولى

YASMINA KHADRA

Les Agneaux du Seigneur

JULLIARD

الكتاب: خرفان المولى
المؤلف: ياسمينة خضرا
الترجمة: محمد ساري

الناشران
* دار الفارابي ـ بيروت ـ لبنان
ت: 301461(01) ـ فاكس: 307775(01)
ص.ب: 3181/ 11 ـ الرمز البريدي: 2130 1107

e-mail: info@dar-alfarabi.com
www.dar-alfarabi.com

* سيديا (SEDIA) فرع مجمع هاشت الفرنسي في الجزائر
ت: 21 00 48 21 (213) ـ 82 14 60 21 (213)
فاكس: 84 14 60 21 (213)

www.sedia-dz.com

الطبعة الأولى 2011
ISBN: 978-9953-71-473-8

إلى إلى أبي وأمي

يَتّفق أكثر من شخص
من أجل تشويش وإيذاء
ذاكرته الخاصة بحيث
ينتقم من شريك واحد
له على الأقل.

نيتشه

I

1

تتخندق الشمس الآن خلف الجبل. تحاول بعض الخُصَل الدامية التشبث بالغيوم، دون جدوى. تنسلّ وتنطفئ في العتمة الزاحفة. تستعد القرية للاختفاء في أسفل الهضبة. خفتت الأصوات في الأزقة الملتوية. وَحدها مجموعة أطفال تواصل الاستحواذ على الزوايا، أكثر احتداماً من سرب زنابير.

يتأمل قادة هِلال سيجارته بذهن منشغل. يُحاول من حين لآخر قول شيء؛ مباشرة، يلوي عنقه بصلابة فيفلت منه تنهّد.

إلى جانبه ينتبه جعفر وهاب إلى أن يديه قد أصابهما الكشط من فرط ملامسة خيوط أحذيته. أسْند ظهره إلى جذع شجرة خروب، ترك بصره يتيه في الحقول، ثمّ، وبضجر ملحوظ، أغمض عينيه أملاً في التخلّص من الخراب المحيط به.

قال علال سيدهم مقترحاً:

- لماذا لا تأتي معي إلى سيدي بلعباس؟
- ماذا سأفعل هناك؟
- سأكلّم رئيسي. إنه شخص خدوم.
بادر جعفر إلى الابتسام.
- ليس لدي التعليم الكافي كي أنخرط في الشرطة.
- ليست هي الوحيدة.
- لا تتعب نفسك، فأنا لا أصْلح لشيء. ثمّ، لا أظن أنني قادر على العيش بعيداً عن هذه القرية المنحوسة.
وافقه قادة على ذلك بيأس:
- الحق معك. هذه القرية هي البلد الوحيد الذي نملكه، ووطننا الوحيد هو عائلتنا. علال شرطي. انسلخ عن جلده. لم يعد ينظر إلى الأشياء بعينيه، وإنما بعيونهم.
ردّ علال:
- أنت تقول أي كلام.
- إن أردت رأيي، أنت أشبه بالنساء المعاصرات. تعتقد أنك تتحرّر، ولكن الحقيقة أنك تغيّر طبيعتك. أنا أيضاً، كنت أظن أن هذا البلد العملاق لي. بعد سنتين من الدراسة المتعثرة، أدركت أنني أدور في حلقة مفرغة كما البُرغيّ المكسور. لذلك عدت إلى القرية. صَحيح أن لا شيء ذا قيمة يحدث في هذا القفار، ومع ذلك فعزاؤنا الوحيد أننا وسط أهلنا... لن يذهب

جعفر إلى أي مكان. سيبقى هنا، وهنا سيلقى حتفه. سينتهي الأمر بهذا المطر اللعين إلى الرأفة بنا، وستوافق حقولنا على الانتعاش من جديد، سنجد المأكل والمشرب، وهو ما يجعلنا نستغني عن هذا البلد الخائن الذي يستبسل في جهلنا.

طرد قادة هِلال ذبابة بفظاظة. تشنّجت قسمات فَكيه لحظة قبل أن يبدأ تحريكهما بوجه غاضب دوماً. إنه حفيد "قايَد" مُستبد، تربى على التقشف واحتقار الحكام الجدد الذين استولت شرا\هتهم على جزء غير يسير من إرثه. أُسقِط إلى صف "الدهماء"، فلم يسمح البتة للاختلاط بأن يزيد في إذلاله كل يوم أكثر، هو الذي كان يحلم منذ نعومة أظفاره بأن يعيد استرجاع كرامته وامتيازاته في بلد يتقهقر باستمرار. أتْعبه الصراع واستولى عليه اليأس، فرضي بوظيفة معلّم، ليجد نفسه يناضل مع الحركة الإسلامية السرية، بضغينة لا تنفك تتضخم مع مرور الأيام.

التفت نحو الشرطي بنظرة متقدة.

- أتظن نفسك قد نجحت يا علال؟ لم يتردّد آخرون قبلك في الادعاء بالنجاح أيضاً. ولكنهم عادوا خائبين يجرون مرارتهم عبر أزقة القرية، ولا أحد تعاطف معهم.

- كلام لا معنى له...

- أتظنّ ذلك؟ في البداية، نتقمص رَأس بغلة،

ونضع غمامة حول العينين، وننطلق غير آبهين لشيء. تراودنا فكرة واحدة ثابتة: الابتعاد عن هذه القفار. ولكننا نَعُود دوماً إلى نقطة الانطلاق. وهنا، يكون الوقت متأخراً لإصلاح ما تكسّر. إن عمّي النائب عرف مثل هذه الحالة. ظنَّ نفسه شخصية كبيرة. النتيجة: انتهى به المطاف إلى مخاطبة الأشجار داخل الغابة، لأن لا أحد رضي أن يستمع إليه... احذر يا جعفر. علال شرطي، لم تعد له مصداقية.

قال جعفر مُغمغماً، بهَيئة متأثرة:

- لم أعد أرضع إصبعي.

انتبه علال إلى أن غصنه قد تكسّر. مَسَح يديه النديتين على ركبتيه واكتفى بمراقبة زان القزم، الجاثم فوق غصن كما الطائر الكاسر، على الجهة الأخرى من الوادي.

ارتفعت رائحة الأشجار والدغل. في المنحدر، انكمشت القرية في دياجي الليل. اختفى الأطفال. أرسل حمار نهيقه المزعج عبر الحقول، فخنقه مباشرة نباح كلاب.

أشعل قادة سيجارة بطرف السابقة. لمْ يعد وجهه إلا لوحة لا تعبّر عن شيء، عصية الإمساك بها تماماً مثل عبوسه. قال جعفر:

- عندما أحاول إقامة جردة حساب لحياتي، أكتشف أنّها لا تستحق أدنى وقفة. سَبع وعشرون سنة

من التوافه. الأيام أكثر فراغاً من الليالي. تستيقظ في الصباح لتنام في المساء، وقد بلّدتك الصور المكرّرة. ردود الأفعال دائماً هي نفسها، والتوافه نفسها...

قال علال لائماً:

- إنك لا تفعل شيئاً لتغيير وضعك.

ردّ جعفر بحسم، هو الذي اكتسب في القرية، مُنذ فترة طويلة، سمعة مناصر أقل جهداً...

- لا شيء يستحق أن نحرق أعصابنا من أجله. لو كان لدي الخيار، لأحببت أن أكون أسداً. نعم أسداً وليس ملكاً. للملك قلاقل كثيرة. أما الأسد فإنه حيوان مريح البال، قوّاد بعض الوقت، مع حريم وجمع من الأطفال، رائحة الطرائد وشعور لا نهائي باللاعقاب...

انتفض الشرطي:

- أتريد الصراحة؟ إن رَجلاً يحلم بأن يكون بهيمة لا يستحق أن يعيش. إذا أردت فعلاً أن تمنح معنى لحياتك التعيسة، تعلّم أولاً أن تقبل وضعك وتتحمّل تبعاته.

- ماذا يعني أن أقبل وَضعي وأتحمّل تبعاته؟

غمغم قادة:

- أنْ لا تثق بشرطي.

ردّ علال بعصبية:

- طيّب. ابق هنا لتصيد الذباب، وانتظر رب العالمين كي يبعث إليك جبريل يهدهدك بجناحيه.

ارتفع صوت المؤذّن. سحق قادة سيجارته على صخرة بحركة آلية، نفض الغبار عن ثيابه وتدحرج عبر الدرب. سأله علال:

- سنلتقي بعد الصلاة؟

- ربّما.

- اللقاء عندي في البيت.

قام قادة بحركة مبهمة واختفى وراء الأشجار.

ارتفع الليل في الأفق، أشبه بعاصفة. بعد لحظات قليلة، سيبتلع القرية، الجبل، العالم بأسره. بعيداً، بدت المنازل المتناثرة كما أشجار "نوال". حاولت نسمة التخفيف من القيظ الضاغط على الغابة المتعبة. تُسمع طقطقاتها على الأغصان، وحشرجتها في عمق الحشائش. استأنفت كلاب القرية نباحها كي تعرف موضعها في الدجى الصاعد، والهضبة، بعد أن اكفهرت قليلاً، داهمها صرير الغابة.

قال علال مقترحاً:

- لدي قنينة خمر في المنزل.

حرّك جعفر رأسه. أطلق قهقهة، مُختصرة وعصبية. بعد تأمل طويل، صفّق بيديه فجأة.

- ما رأيك لو نذهب عند مامي العاهرة؟

- سيارتي معطلة.

- سنأخذ تاكسي.

- والعودة؟ لقد وعدت قادة بأنني سأنْتظره في البيت.

- قد لا يأتي.

- لا ، سوف يأتي.

أمسك جعفر صديقه من المعصم مُتوسلاً :

- إن إجازتك على وشك الانتهاء. وأنت تعلم بأنني عاجز عن مواجهة عاهرة إن لم تكن حاضراً معي.

- ليس هذا المساء. ثمّ إن مامي لا تستقبل إلا بموعد سابق.

أرخى جعفر ضغطه. انتابه الضجر من جديد.

يقع منزل علال سيدهم عند مخرج القرية، مختبئاً داخل تين الصبار. إنه كوخ ذو واجهات خربة، وباب حديدي ثقيل وفناء مهمل يضيئه مصباح عمومي شحيح. يعيش علال مع أمّه، أرملة منسحبة، وأختيه اللتين ذبلتا منذ زمن بعيد.

استقر الصديقان في غرفة، أحدهما على مقعد مبطن، والآخر على طابوري. تجتهد ستائر ناحلة اللون للتقليل من قبح الجدران، فيما تجد لمبة عارية صعوبة في بث ضوئها عبر غائط الذباب الذي يغلفها. على طاولة سرير بسيطة، يوجد إطار به صورة علال، ببذلة أعوان الأمن، في وقفة عسكرية. ثبّت جعفر بصره

لحظة على الصورة قبل أن يقلبها بحركة يد غريبة. انتبه الشرطي إلى تلك الحركة المريبة.

- عندك منزل وأجرة شهرية ووظيفة قارة...

- متى تقرّر أن تتزوّج؟

قال علال:

- لنقل إن مَحْظيّة قلبي لم تصل بعد إلى السن المطلوبة.

- هل رست عينك على واحدة؟

- العينان معاً.

- هل هو سرّ؟

- ربّما...

نهض جعفر من الطابوري والتحق بالشرطي على المقعد.

- هل تفكر في بنت رئيس البلدية، أليس كذلك؟

- لا يمكن أن أخفي عنك شيئاً.

- سَوْف لن ترضى سارة بأن تضحّي برفاهيتها من أجل كوخ كهذا.

- ما أدراك؟

لم يكن جعفر متحمساً. كانت سارة عذراء غاشيمات المحبوبة. لا يوجد فتى واحد في القرية لا يحلم بالظفر بحبها. غمغم:

- سيكون لك حساد كثر.

- إنني أرى واحداً منهم.

- ليس لديك أدنى حظ.

- ماذا تعني بالحظ؟

لم يجب جعفر. نَظر إلى وجه الشرطي الجميل، وشاربه الكث حول ابتسامة مغرية، وعينيه الشفّافتين، القلقتين قليلاً. في السادسة والعشرين من عمره، لم يتمكن علال من التخلص من وجه الطفل الذي يلازمه وذاك الشيء الجميل الذي يجعل حضوره مريحاً وغيابه عصي الاحتمال.

- ما رأيك لو نفتح القنينة؟

بعد برهة، وجدهما قادة المعلم منهارَين ثملَين على المقعد. قال جعفر متلعثماً:

- هل سمعت آخر خبر؟ إن شرطينا يريد أن يسرق منا سارة.

قطّب المعلم حاجبيه. لم يقل شيئاً. اكتفى بالتمدّد على الحصير وبتثبيت بصره نحو السقف، ببريق غريب في عينيه.

2

يحكّ عيسى عصمان أنفه الضخم الذي يلتهم وجهه. تبرز عظام رقبته أكثر تحت نظرة رئيس البلدية الصارمة. خلف المصرف، أوقف القهوجي حركاته، عمامته متدلية، ينتظر بمعية زبائنه، أن يرى الصاعقة تسقط على هذا الحاجب الملعون الذي يمقته جميع أهل القرية.

لقد تعاون عيسى مع الإدارة الاستعمارية أثناء الحرب. كان حينئذٍ العربي الوحيد الذي يتردّد إلى قاعة مطعم العساكر الفرنسيين. صحيح أنه لم يكن واشياً، ولم يتعامل بفظاظة مع ذويه، ومع ذلك، كان يتبجّح بإظهار سمنته في وقت كان غيره يتجرع مرارة الجوع والمهانة. في نهاية الحرب، قام المجاهدون بتجريده من أملاكه واتّخذوا قرار شنقه في الساحة العمومية. كانت جثته ستتعفن على ضفة الوادي لولا تدخل سيدي صَعيم

المحترم. في غاشيمات، تُعتبر الضغينة المورِّدة الوحيدة للذاكرة الجماعية. اليوم يدفع عيسى الثمن. ثيابه رَثّة، تنبعث منها روائح كريهة، ونادراً ما يأكل حتى الشبع. حينما يمشي، يلامس الجدران كما انعكاسات الظل، خافض الرأس، مُنكمشاً على نفسه. في غاشيمات، حينما يصاب شخص باليأس إلى حدّ ملامسة الكفر، يذهب ليرى الخائن يجرجر قدميه من الخزي ليجد نفسه فجأة قد استعاد طعمه للحياة.

ارتعد رئيس البلدية من الغضب. بإصبع ضامر، دقّ على الطاولة كي يؤكد على تهديداته.

- يا عيسى الغبي، إذا لم تأتِ إليّ بالمفتاح بعد خمس دقائق، سأقلع جلد ظهرك بكلتا يديّ. بالأمس فقط، ضيّعت حقيبتي اليدوية، واليوم ستتعطّل شؤون البلدية بسبب طيشك...

ملّس عيسى طوق سترته البالية بحركة بائسة. صرخ رئيس البلدية:

- ماذا تنتظر؟

انتفض الشيخ أولاً، ثمّ تراجع إلى الخلف مرعوباً وبدأ يركض كما الممسوس. من الطاولة المجاورة، نطق صالح الإمام قائلاً:

- إنه شيخ هرم. لماذا لا تتخلص من خدماته؟ على كل حال، لم يكن يملك كل صفاء ذهنه حتى وهو شاب.

ردّ رئيس البلدية بانزعاج:

- ومن سيتكفل بمشترياتي ؟ لديّ أشغال كثيرة، لا يمكن أن أكون في الفرن والمطحنة في آن واحد.

- وظّف شخصاً آخر.

مطّ رئيس البلدية شفتيه في تكشيرة احتقار:

- يفضّل الناس التحجّر عند قدم جذع شجرة عوضاً عن أن يقدموا خدمة نافعة من حين لآخر. انظر إليهم، يضيف مشيراً بتقزز إلى الفلاحين الجالسين حوله، إنّ أسمى طموحهم أن يُستبدلوا بالكراسي التي يجلسون عليها.

احتمى الفلاحون بفناجينهم. حدّق رئيس البلدية إليهم قبل أن يقوم ويرمي أذيال بَرْنوسه على كتفيه ويزأر:

- ينبغي أن نُخرجهم يوماً من هنا بالبلدوزَر. إنهم أبطال في إنجاب الأطفال. أما أن يعيلوهم (يشير برأسه إلى السماء)، فإنهم يفوِّضون ذلك إلى ربّ العالمين ليقوم مقامهم. أتَعرف أيها الإمام المبجل لماذا تحتل الأشواك والأحجار حقولنا كل سنة أكثر؟...

حرّك الإمام رأسه متفهماً.

رفع رئيس البلدية ذراعَيه وتلفظ بلعنة قبل أن يبتعد غاضباً. بدأ القهوجي ينظف مصرفه. عادت الطاولات بسرعة إلى التأوّه تحت شراسة لاعبي الدومينو.

مسح تاج عُصمان يديه بمنديل معلق في الجيب الخلفي لسرواله وأغلق غطاء السيارة الأمامي. في تلك اللحظة، مرّ أبوه عيسى راكضاً بقرب المَرْأب، تتأجّج زاويتا فمه بالزبد. صرخ الابن:

- ماذا حدث ثانية؟

لم يجد عيسى الوقت للتوقف. حرّك يداً بحرج وأسرع باتجاه كوخه الواقع بطرف الزقاق.

نفخ تاج خديه وأطلق تنهداً.

في الجهة المقابلة من القارعة، مقابل المَرْأب، كان الحاج موريس منهكاً على كرسيه الخَيْزُراني، بوجهه القرمزي، ومروحة عريضة في اليد. في الثمانين من العمر، لا ينتظر الحاج موريس شيئاً من الحياة. لذلك يقضي جُلّ وقته في التدرّب على اختبارات البطالة اللذيذة. وحينما يُلام على إفراطه في الكسل، يردّ: "أتعرّب"، وهذا يكفي لتهدئة العقول. سابقاً، اشتغل موريس وكيل أعمال عند كُسافِي. كان مبادراً في عمله، بلا مشاكل، نزيهاً مع عماله الدائمين وعادلاً مع الموسميين. أثناء الحرب، وبعد التهديدات ورسائل التخويف وأمام تقتيل الحَرْكَة، جمع على عجل بعض الأشياء الخاصة وذهب إلى فرنسا، البلد الذي لم يعرفه سابقاً. ولكن جوّ مدينة ليون الكئيب أتعسه. وَجَد المدينة مرعبة، صاخبة، لا يلتقي الساكن جاره في الطابق نفسه إلا نادراً. اشتاق إلى شمس مسقط رأسه

وإلى عفوية الفلاحين. لم يُطق صبراً، فلمّ شمله واستجمع شجاعته، وامتطى أول سفينة وعاد إلى غاشيمات حيث يحسن الرعاة الإنشاد بالناي أفضل من الشحارير، وحيث الحرارة الإنسانية لا نظير لها في أي مكان آخر. تطلبت إعادة الإدماج تنازلات ضخمة. اشتغل موريس بناءً وحارساً ليلياً ومعاوناً وأخيراً مدرّساً. تزوّج مسلمة لم تنجب له ذرية، ولكنها برعت في جعله ينسى ويتغاضى عن المسألة. حينما تعبت ردود أفعاله، استفاد من تقاعد وباشر في ترك نفسه تنساب على هوى إغفاءاته. مع تقدّم العمر، أصبح ثخيناً وعاقلاً، وقد تدرّب على ألطاف البطالة اللذيذة بكثير من الابتهاج.

- تعالَ اشرب كأس شاي معي يا تاج.

تفحّص الميكانيكي ساعته، ثمّ قرفص بقرب العجوز. حرّك الحاج موريس المروحة لينعش خديه المبللين.

- هل تشتغل مضختك جيداً؟

قال العجوز:

- إنها رائعة. كاد المُتهور سليمان أن يخرِّبها. ومع ذلك أُصِرّ على أن أدفع له مالاً. هل يَحسبني السامريّ السخيّ؟

حمل تاج حجراً، رازه بيده ثمّ أعاده إلى حفرته. تمايل صوته:

- لقد أعجبني تدخلك ذاك اليوم.

قال العجوز:

- باه... إن الناس ليسوا شِرّيرين إلى هذا الحدّ. البؤس هو الشرّ الحقيقي. لم يظلم أبوك ولو ذبابة واحدة. أتَذكّر جيداً أنه كان يتدخل دائماً لإيجاد عملٍ ما لفلاح طُرد من عمله. وما أكثرهم في تلك الفترة. للأسَف الشديد، لا يميل الناس إلى استحضار إلا ما يناسبهم.

- كان عليّ أنْ أشكرك.

- ها قد فعلت. واعتبر المسألة منتهية.

رفع الحاج موريس عينيه وتابع تحليق زوج من العصافير. بعيداً، تستبسل غيوم رثّة للابتعاد عن قمة الجبل، دائماً بيضاء وغير مفيدة. على سفح الهضبة، يرعى قطيع غنم في التراب، فيما غَفا راعٍ شاب على صخرة، وقد أنهكه القيظ.

حطّ تاج كأسه عندما رأى أباه يصعد الزقاق بخطى سَريعة وهو يلوّح بمفتاح في يده.

- وجَدته... وجَدته...

مَرّ قُرب ابنه، لاهثاً، محموماً، جاحظ العينين من فرط فرح عبثي، ساطعاً كما الخلاص. أدار الحاج موريس رأسه اتقاءً للحرج. التحق تاج بورشته، نظّم أدواته وشغّل مخرطة في عمق المَرْأب. فجأة، عبّرت حركاته عن غضب أصمّ. باغته جعفر عند الظهر:

- قل لي أيها الميكانيكي، هل عَربتنا جاهزة؟

استدار تاج بخفة. خلف جعفر، وقف علال الشرطي وقادة المعلم فأشارا له بحركة يد.

- لقد صلّحتها.

سأل الشرطي.

- ما بِها ؟

- وجدت المفحّم متّسخاً.

- كم أدفع لك؟

- لا شيء. خدمة الأصدقاء عندي متعة.

أصرّ علال على دس ورقة نقدية داخل الجيب. انتهى الميكانيكي أخيراً إلى قبول الورقة. أمْسَك قادة من الذراع، أبعده خلسة عن الآخرين وأسرّ له:

- الشيخ عباس خرج من السجن هذا الصباح.

- إنني على علم... نحن ذاهبون إلى المدينة. هل تحتاج شيئاً؟

فكّر الميكانيكي:

- إذا ذهبت إلى المسجد الكبير، حاول أن تجلب لي الكتاب الذي حدّثتك عنه.

ارتفع هدير المحرّك. عبّر جعفر الجالس بقرب علال السائق عن سروره بصيحة خانقة. ارتمى قادة على المقعد الخلفي.

عند مخرج القرية، وقف جلول المجنون بثبات عندما رأى اقتراب سيارة البيجو ووضع يده على صدغه

في تحية عسكرية. تسلقت السيارة مرتفعاً ثمّ تدحرجت عبر الطريق الترابي، مُخلّفةً وراءها وشاحاً واسعاً من الغبار. مرّت قرب منزل رئيس البلدية. كانت سارة جالسة في الحديقة برفقة أمها. التفت الأصدقاء الثلاثة دفعة واحدة نحو الفتاة، ولكن نظرتها اللازوردية اختارت أن تضيء نظرة الشرطي. ارتعدت فرائص الفتيان الثلاثة، كل من جهته، دون أن يجرؤ أحدهم على التفوه بكلمة من شأنها خيانة عمق تفكيرهم.

3

كان رمضان عِيش مسروراً. عاد ابنه عبّاس. تدفّق الناس على فِناء المنزل، مُحَمّلين بالهدايا. أذِن لهم بعناقه، ورضي أحياناً أن يتركهم يقبلون رأسه. وقف أقرباؤه إلى جانبه، تلفّهم الكبرياء، يرفضون الإطالة مع السرور المزيّف لأولئك الذين أحجموا عن اقتسام حزنهم يوم جاء رجال الدرك لإيقاف ابنهم. لم ينس رمضان هو أيضاً. ولكن الناس كادوا يسجدون على قدميه فبعثوا في نفسه غروراً بحيث بدا متسامحاً معهم. لقد كلّف عيسى عصمان نحر سبعة كباش بقرونها الملتوية كما جنّد أمهر طباخات المنطقة كي ترسخ عودة ابنه في أذهان الناس إلى الأبد.

قال الإمام صالح وهو يضمّ رمضان بقوة إلى صدره:

- أين ابْننا العزيز؟ اشتقت إلى تحيته.

ردّ رمضان بتلك العجرفة التي لا يقدر عليها إلا أبطال يوم واحد:

- إنه يستريح في غرفته. لا ينبغي أن نزعجه.

انتقل رئيس البلدية شخصياً، مُحاطاً بحاشيته. تخلّى هذه المرة عن عاداته التي تجعله دوماً فوق الجميع ورضيَ بكل عفوية أن ينزع حذاءه قبل أن يلتحق بالأعيان في قاعة الاستقبال.

في الغرفة المجاورة، كانت الحاجة مبروكة تقوم مقام الضحية المستغفرة. تَجمّعت النساء حولها لمواساتها.

- اهدئي يا الحاجة، صار ابنك معك الآن.

ترتوي الأم من دموعها. تدفع بالحزن من حين لآخر إلى غاية الإغماء. كان وجهها مخطّطاً بنثار من خضاب للجفون، وشعرها الذي رفعته جيداً هذا الصباح تجاوز الخمار وانسدل على كتفيها المرتجفتين. قالت امرأة ثخينة لجمع النساء الملتصقات حول الأم الباكية:

- اتركوها تفرغ قلبها من المرارة التي كادت تقتلها.

تأثّر رمضان مباشرةً ببكاء زوجته الخائر وبشهادات التعاطف المتواصلة. كلّفِ أقرباءه الاهتمام بالوليمة واسْتَسمَح ضيوفه بضرورة الغياب لفترة وجيزة.

تعالت غمغمات بعض الحاضرين:

- خذ راحتك، أنت مسامح. نقدّر جيداً حالتك.

في الخارج، يعبر غراب السماء ناعقاً. ينزلق ظله على تموّج الأرض ويختفي داخل تين الصبار.

الشيخ عَبّاس شاب في الخامسة والعشرين من عمره. لقد طبعت إقامته المتكررة في السجن وجهه بمسحة من الهيبة الروحية. كان يتربّع في عمق القاعة، جالساً على الوسائد كشيخ زاوِيَة، البصر بعيد والسبحة في اليد. يحيط به مُريدوه الذين يحضنون بصمت هذه الشخصية المهيبة التي لم تتمكّن سجون الطاغوت من ترويضها. في سن السابعة عشرة، كان يُلقي خُطباً في أشهر المساجد، مُلمّاً بعلم عظيم وبلاغةٍ تبهر أمهر الخطباء. يَعْرف أحسن من غيره الجمع بين الأحاديث النبوية الشريفة وبين أقوال الشعراء. حينما يهاجم المفسدين وأعوان السلطة، يُخيّل لسامعيه أن خطبه النارية ستَرجمهم في الحين. يُروى أنه تمكّن من هدي جميع الحثالة الذين يقبعون داخل السجون.

بالنسبة للناس البسطاء، إن الشيخ عباس علامة رَبّانية. إن لم يكن يحمل رسالة سماوية، فإنه ليس إلا أجْدر خادم لها. هذا ما كان يقوله الضيوف وهم يغرفون من قِصع الكُسْكُسي، بأذقانهم المبللة بالمرق والأسنان التي لا تزال تحتفظ بألياف اللحم.

لم يكن الشيخ عباس يأكل. يجلس على عرشه،

مُستمسكاً بهيبته، ويتابع قطيعه وهو يرعى، في سكينة نادرة. سأل زان القزم بين لقمتين ابتلعهما بسرعة:

- هل عذّبوك؟

ردّ عملاق مُستنكراً، وهو يمزّق بيديه المسعورتين قطعة لحم:

- لا يُعذّب القديس. إن الشيخ عباس روح، لا تصل إليه يد ولا تمسك به سلسلة.

لاحظ القزم بأن فضوله أفقده قطعة لحم. مباشرة التفت نحو قصعة مجاورة.

تاج عصمان، ابن عيسى العار، لا يأكل هو أيضاً. مُنذ أن تمكن من إحراز مكانة بقرب الشيخ، قرّر التمسك بها بكل ما يملك من قوة. يتنافس الضيوف على الاقتراب من الشيخ. يعرف أن الكثيرين يلومونه في السرّ على هذا التدنيس. وإذا كان يحاول بقدر الإمكان أن يبدو صغيراً، فلكي يتخلص من النظرات المستاءة التي لا تنفك تتعاظم.

كلما تململ الشيخ جمد المحيطون به، مترقبين أمراً أو حركة. عباس لا يقول شيئاً. قام بعض الأصدقاء بأداء حركات مسلية محاولة منهم لإخراجه من وقاره بلا جدوى. ومع ذلك، وحسب طبيعة التصنّع وصاحبه، يحدث للشيخ أن يرفع بصره إلى مُسلٍ، فيسعد الجميع. قال علال الشرطي وهو يمسح يديه بمنديل:

- أتأسف لانسحابي من الوليمة مُبكراً. إنها نهاية عطلتي. سأعود إذاً باكراً.

التَزَم الشيخ دقيقة صمت، كما لو أنه لم يفهم، ثمّ قال بلطف:

- شكراً على مجيئك.

- وددت لو بقيت معكم وقتاً أطْوَل...

- لا أشكّ في هذا. كنت سعيداً برؤيتك. قبل أن تغادر، اسمَح لي بأن أقدم لك هدية.

لم يكد الشيخ يصفق بيديه حتى ظهر إسماعيل، قريب عملاق، وأسْرع بإحضار علبة مغلفة بعناية داخل ورق برّاق. قال الشيخ شارحاً:

- هذا مُصحف، نُسْخة نادرة. أنجزها حرفي مشهور من مكّة المكرّمة.

تناول الشرطي الكتاب بحذر وعناية ثمّ قام من مكانه. أضاف الشيخ:

- علال سيدهم، لقد خطرت ببالي كثيراً في المدة الأخيرة. أنت رجل خير. أقدّر استقامتك.

حيّا علال الحاضرين وغادر القاعة، يلاحقه جعفر.

في الخارج، ابتلع الليل الجبل. الأزقة خالية إلا من بعض الكلاب الضالة المتسخة.

هنّأه جعفر قائلاً:

- لقد أعطى لك بركته. نادراً ما يخاطب عباس أبناء الحي بهذه الطريقة.

- لقد كنا دوماً نتبادل الاحترام والتقدير.

- كنت أعتقد أنك ستَعود يوم الثلاثاء.

- تلقيت أمراً بالالتحاق فوراً بمركز عملي. يبدو أن الأمر مستعجل.

- سأشتاق إليك.

- ابحث لنفسك عن شغل ما.

- من فضلك لا تطرح القضية من جديد.

توقف علال ليتفرّس في وجه صديقه.

- أيها المغفل. متى ستعقل؟ حاول أن تتخلص من سحنتك الكئيبة وعُد إلى قرب عائلة عِيش لأنهم سيظنون أنك لا تحترم ابنهم بما فيه الكفاية.

ابتعد الشرطي. بعد قليل، ابتلعت العتمة ظله. بقي جعفر لحظة يسترق السمع إلى صرير التربة المغبرة تحت قدمي صديقه قبل أن يعود مرغماً إلى منزل عائلة عِيش.

لم تكن سارة تسمع صوت المؤذّن وسط زقزقة الطيور. تفتحت عيناها الكبيرتان وسط وجهها الجميل الناعس. فجأة تذكرت شيئاً ما، قفزت من على سريرها وركضت إلى النافذة. جالت ببصرها في الخارج دون أن تُزيل الستار. انتفض ديك في أعلى الخُمّ، العُرف مقدام. ينطلق صياحه بعيداً، يُحرِّك العتمة. في تلك اللحظة، توقفت سيارة علال القديمة على بعد أمتار من السياج. بحَركة يد مترددة، أزاحت سارة جزءاً من

الستار كما لو أنها تزيح شيئاً مقدساً. يخفق قلبها بقوة تهدّد بإيقاظ كل من في الدار.

بدا لعلال أنه يرى ستار النافذة في الطابق الأول يتحرّك. لا يميّز خيال سارة ولكنه يعرف بأنها هناك كعادتها، فلم يُلح. في غاشيمات، يختفي المحبون، اتقاء للعين الحسود، وإعطاء الوقت للحب كي ينضج. وجّه إليها خلسة حَركة يد خفيفة ودفع بالسيارة في الدرب.

كان جلول المجنون مقرفصاً تحت زيتونة، يؤجّج ناراً ضعيفة. عند سماعه هدير السيارة، وقف وقرّب يده من صدغه. يؤدي جلول التحية العسكرية حتى في حالة مرور الشرطي بعيداً عنه.

عادت سارة إلى سريرها، أسندت ظَهرها إلى الوسادة وتركت أصابعها تفرك الإزار إلى حدّ تمزيقه.

4

أخرج عمار القهوجي الكراسي والطاولات إلى شرفة محله. على الرصيف المقابل، كان بعض الزبائن المبكرين ينتظرون قلقين، أجفانهم منتفخة. يترقبون إشارة منه كي يهجموا على أحجار الدومينو التي سوف لن يسلّمها المتقدمون للمتأخرين. في غاشيمات، يتنافس الجميع على مكان في المقهى، مبتدئين يومهم بضربات الدوبل سيس الصاخبة، وخاتمين إياه بالدوبل بلان الكابتة. يتسمرون على الكراسي التي لا يغادرونها قبل سقوط الليل. من الصباح إلى المساء والمقهى الشعبي يعجّ بضجيج الأحجار بحيث يكون رأس عمار، عند عودته إلى بيته، يطقطق حتى في النوم.

قام عيسى العار بسخرة لتنظيف ناحية مقر البلدية. يحمل كيساً بيده ويطارد أعقاب السجائر والأوراق وأوساخاً أخرى. جلس مازَة البواب على درج المدخل، مقهقهاً، ينظر إليه وهو ينحني بمشقة. يناديه

من حين لآخر ليريه بالذقن عقب سيجارة منسياً. ينفذ عيسى أوامره بصبر غريب مُتظاهراً بعدم ملاحظة ابتهاج البواب.

- إياك أن تدخّن هذه الأعقاب فيما بعد.

اصطنع عيسى ابتسامة مُوافِقاً.

- لا تتوقف أيها الغبي. انظر هناك، عنْد أنفك، هذا الغائط.

مرّ الإمام صالح قرب البلدية، بسَحْنة مكفهرة. قال البواب:

- صبَاح الخير يا شيخ.

غمغم الإمام:

- لا خَيْر إلا في الله. من أين يأتي الخير حينما تعثر صباحاً على سكير لم يجد مكاناً يقيء فيه خمره أفضل من باب المسجد. لا شَيْء تنتظره في يومك هذا. قريباً جداً ستصبح القرية ملوّثة بالسكارى، وسيهجرها حتى الأولياء الصالحون.

فتح البواب ذراعَيه علامة الاضطراب:

- أين نَذهب بهذه الوتيرة يا شيخنا الطيب؟

- إلى جهنم، يا ولدي، إلى جهنم.

بعد ذهاب الإمام، سحق البواب سيجارته على درج، رماها بحركة يد على الرصيف، ثمّ نادى عيسى من جديد كي يُريه إياها.

كادَت أم جعفر وهاب تنفجر غضباً حينما وجدت ابنها لا يزال في الفراش.

- ستخمر مثل العجينة. هَيّا انهض. عليّ أنْ أقوم بالتنظيف.

تحرّك جعفر بتكاسل تحت الغطاء.

- كم الساعة؟

- مُنذ متى تعتني بالوقت؟ يستبسل أبوك وإخوتك في تنظيف البئر، وأنت ضارب الدنيا على قفاها.

قال جعفر مغمغماً بصوت ناعس:

- سوف لن يستخرج أبي شيئاً من هذه الأرض اليباب. قلت له ذلك مراراً. ولكنه لا يريد أن يسمع. يعلم الجميع أنَّ لا ماء في هذه البئر. يحفر ما شاء له أن يحفر، سينتهي به الأمر إلى لمس العمق نهائياً، ولكنه لن يجد قطرة ماء واحدة. لو كنت مكانه لبعت هذه الحقول الجافة واشتريت تجارة صغيرة وكفيت نفسي شرّ الشقاء. نسكن منزلاً محترماً عوضاً عن هذا الوِجار القذر، ونشتري سيارة نُرفّه بها عن أنفسنا. المسألة في غاية البساطة. لكل كائن قسطه من السعادة في متناول اليد، يكفيه أن يمدها قليلاً. ولكن أبي بائس وسيبقى كذلك. يشك في كل شيء لا يعذبه.

قالت الأم مُكتَربَة:

- آه، لو كانت ذراعك أطْوَل من لسانك.

ذهب جعفر أوّلاً إلى قادة المُعلّم، فلم يجده. عاد

إلى الساحة العمومية يتسلى بالنظر إلى الباعة المتجولين للسوق الأسبوعية وهم يعدّون خيامهم المغبرة. غصّت البطحاء بالشاحنات والعربات القديمة في فوضى عارمة. ينتقل المتسوقون من رفّ إلى آخر، يتشمّمون السمك، يزنون البطيخ ويطردون الذباب الذي يحاصر قطع اللحم المعروضة على لوحات خشبية متسخة. يصرخ جَزّار مُكرّش أمام المارة:

- سيذوب على طرف ألسنتكم. إنه لحم الخروف الطري، ذُبح هذا الصباح. لا يوجد أي خطر، ابني طبيب بيطري.

ابتعد جعفر من أمام تلك الرائحة الكريهة. انحدر من جهة دار سيدهم يراوده أمل عابث في لقاء الشرطي، قام بدورة عبر الزقاق، ثمّ انطلق نحو الحقول في أسفل الهضبة، فُوجئ بوجود مراد وعصابته يدخنون \الكيف، في تجويف قرب الوادي. كانت عينا مراد جاحظتين. أخوه بوجَمْعة يمصّ بشراهة سيجارة مسحوقة، تحت نظرة إلياس الحدّاد. كان زان القزم يطلق قهقهات في زاوية وهو يحكّ يديه كما السرطان. قلع جناحي ذبابة ووضعها في عمق حفرة بالرمل. حاولت الدُوَيبة المذعورة أن تتسلق المنحدر. انهار الرمل تحت سيقانها فتدحرجت. فجأة، تفقّست حدبة صغيرة تحتها، فانقضّ عليها ليث عفرين. في لمح

البصر، انغلق الرمل على الصياد وطريدته، تاركاً القزم في سعادة قصوى. قال الحدّاد لجعفر:

- إنك أشبه بجرو مُهمل. غادرك صديقك الشرطي من جديد.

- إنها الحياة.

- هل تريد وَصْلة؟ إنها لك بالثمن الخاص بالأصدقاء. وإذا كنت مفلساً، اِدفع فيما بعد.

- إنها على مسؤوليتك.

في الجهة الأخرى من الوادي، كانت أشجار ذابلة على هيئة متسولين تتمايل تحت المزاج المتقلب لريح ترّهية. أظهر جرذ حقول رأسه المغزلي وسط الحصى، حذراً، أدار بصره عشر مرات قبل أن يغامر بشاربيه داخل بركة ماء. تخلّعت الحرارة على الأحجار الساخنة، مُفقرة الهواء ومُبعدة المبادرات. انتظر جعفر وصلته التي لم تأتِ. غلفت مرارته وجهه بلثام رمادي. ودون أن يعرف لماذا طفق يحكي:

- قال لي أبي: إذا أجبت بنعم واحدة عن الأسئلة الثلاثة التي سأطرحها عليك، سأقبل تزويجك الفتاة التي ترغب. هل لديك عمل؟ قلت لا. هل تملك ثروة خاصة؟ قلت لا. هل لديك سقف؟ قلت لا. حينئذ فتح أبي ذراعيه وقال لي: إذاً ما عليك إلا الصبر على شقائك، يا ولدي.

تفرّس فيه الحدّاد لحظة، انقلب على ظهره وقال بنبرة يأس:

- أنت على وشك الانهيار يا صديقي.

- هذا هو رأيي أيضاً.

أطلق زان القزم صرخة فظة وهو يشهر قبضته كغنيمة. استعان مباشرة بيده الأخرى كي يشل الذبابة، ثمّ نزع أجنحتها في قهقهة صاخبة ورماها في عش الليث العفرين. انتاب جعفر اكتئاب، فقام وقال:

- أليس هذا مؤسفاً حقاً؟

5

- سوف لن أهين نَفْسي أمام تلك الصبية. ثمّ إنني لم أدرج يوماً في مشاريعي أن أرتبط بعائلة وصوليين مُدّعين.

تمايلت والدة قادة، وفمها يُرغي زبداً من الاستنكار. كانت كل صرخة تصدر منها تهزّ نهديها الثقيلين وتحرّك وركيها الضخمين. كانت عيناها المحتقنتان بالدم ترشّان المكان المحيط بها رشاً.

- بوّالة وسخة تتصرف كسلطانة لأن زوجها الفزاعة رئيس بلدية. نسيت بسرعة تلك الأيام التي كانت تأتي فيها إلى مزرعتنا حافيةً، جائعةً، يسيل منخاراها قذارة لتبحث عن الفُتات في مزابلنا. كان عليك أن تراها في ذاك الوقت وهي تخجل حتى من لفظ كلمة شكر حينما أدسّ في يدها المتردّدة نقوداً. وفجأة، تنفتح لها السموات السبع، وها هي تحاط تبجيلاً بزرافات النساء الثرثارات بحيث حينما نذهب لرؤيتها، تتصنع هيئة

متعجرفة وتقول بأنها تنتظر ضيوفاً مهمين... لا، لن أذهب لإذلال نفسي أمامها. الموت أحسن لي.

كان قادة جالساً في الفناء المخطط بألياف ضوئية تتسرّب عبر القصب. وكان صوت أمّه يرن في صدغيه كما الهدير. صرخ منتصباً:

- كفى...

أدْرَكت الأم مباشرة أن ابنها قد وقع فعلاً في ألياف الشيطان. قال بصوت قلق:

- اسْمَعي جيداً يا أمّي. لقَد ولّى الزمن الذي كانت فيه الأمهات يخترن لأبنائهن بهيمة تحسن السكوت وتطيع الأوامر دون أدنى احتجاج. في زماننا هذا، الحب موجود. وأنا أحب سارة. رئيس البلدية، زوجته، كبرياؤك، ثرثرة الناس، لا يعنيني شيء من هذا. كل ما أريده، سارة، ولا شيء غيرها. وأنت يا أمي، لأنني أطلب منك ذلك فقط، ستأخذين بناتك وصينية حلويات وتذهبين لطلب يدها لي .

- لا أريد أن أسمع كلمة واحدة عن هذا الأمر.

- أخشى أنْ لا يكون بيننا حديث هذه الأيام إلا هذا الأمر الذي ترفضينه. (اكتست نبرة صوته حدّة وعدوانية). لقد قدّمت تنازلات كثيرة في حياتي. قبلت بمنصب معلم قرية في وقت كنت أحلم أن أكون طياراً. قبلت أن أكون جروك فيما كنت أحلم أن أطير بجناحيّ الخاصّين. في كل مرة أنوي فيه تجريب حظي،

تعترضين مُصرّة على أن أبقى على بعد شبر من أنانيتك. اليوم أحب فتاة وأريد أن أتخذها زوجة لي. بنت الشيطان أم بنت الملك، إنها الفتاة التي أريد، وكفى. وهذه المرة، سوف لن أرضخ لعنادك. الموت أحسن، حسب قولك.

- ماذا وجدت فيها أفضل من بنات أخوالك؟ إنها نحيفة وشاحبة كما لو أنها ستحتضر حالاً.

- ليس هذا ما أراه أنا.

- تكون قد سحرَتك. لا شك في ذلك، إنها كتبت لك تميمة. غداً في الصباح الباكر، سأذهب عند الطالب ليُزيح عنك هذا السحر.

- ستذهبين لطلب يدها. إن خُطّاباً كثراً يحومون حولها. سمعت أن علال الشرطي يريد أن يَخْطبها. وليس هو الوحيد. عليك أن تُسرعي. يا أمي العزيزة، إذا حاولت إفشال مشروعي، سأستعين بخالتي يامينة لتمثلني.

- لا، إلا تلك الأفعى. لا أتحمّل حتى ذكر اسمها.

تبادل الابن والأم نظرات طويلة. هي محتقنة؛ هو داكن. لم تتصوّر البتة أن بإمكانه إظهار عناد وإصرار بهذه الشراسة، على شفا حفرة من الانتحار. هزّت رأسها منهارة. قالت بعصبية والدموع تغمر عينيها:

- لا أتذكر أنني تخليت يوماً عن واجباتي الدينية.

أقبَل أن أتعذب من أجل أخت سيئة، أتسامح مع زوج شرس، ولكن الشيء البشع أن يأتي السوء والضر من كبدك، من أحشائك.

انهارت على مقعد كما الوهم المصعوق.

لم يُغمض قادة عينيه طوال الليل. كان ينتظر طُلوعَ النهار، تارة ممدداً على فراشه، وتارة أخرى يذرع الغرفة. لم تتمكن كتبه الدينية الكثيرة من تسليته. كلما فتح واحداً تبخّرت الصفحات لتحلّ محلها عينا سارة. كانت عاطفة خيانة تجاه علال الشرطي تقضم أحشاءه. بسُرعة رفض تأنيب الضمير وقدّر بأن له، مثل غيره، حق طلب يد الفتاة التي يحلم بها.

أخيراً، انبلج الفجر. قام فتوضّأ وصلى كثيراً. في الغرفة المجاورة، انتفضت الأم:

- يَنبَغي أن تفهم هذه المتبجحة أن المجد الحقيقي هو ذاك الذي نتوارثه عن الأجداد، وليس بتلك المظاهر المزيفة التي سرعان ما تندثر مع تغير الأحوال. أنا هلالية حرّة. في زمني، كان الناس ينادونني بـ "لالّة".

ولمدة ساعة كاملة، بقيت أمام المرآة، تتزيّن، ترفع أهدابها واحداً واحداً وخصلات شعرها، تخفي تحت المساحيق التجاعيد وانتفاخات اللحم التي تشوّهها،

نادمة على حَب الجمال الأخضر غير الملائم والذي رسمه وشّام على خدها.

بعد ذلك قضت دهراً لتختار، من مجوهراتها، القطع الأكثر بهراً.

كان قادة يذرع السقيفة ذهاباً وإياباً، وأصابعه متشابكة خلف ظهره. لقد عرفت سقيفة منزل عائلة هلال أيام مجد كثيرة. بناها الجدّ الثالث الذي اشتهر بميله إلى البذخ والأبهة وإظهار ميوله الصوفية. كانت أكبر مساحة، وتنتشر نحو الأسفل، مُزيّنة بالأقواس والبلاطة. في أيام العيد، يستقبل عشرات الأعيان، وكانت الخرفان المشوية تتراصف على طول المنبسط. على الصور العائلية التي تحتفظ في ألبومات والتي تسرع الأم إلى بسطها أمام صديقاتها، يمكن رؤية الحدائق التي لا تنتهي، المزدانة بأشجار المشمش والكرز واللوز، بحيث تشكل مواسم جني الثمار أعراساً رائعة؛ والخدم والحشم المحزمون في صدريات مطرزة، والشاش المتلألئ بمواد تزيين والسروال العريض؛ والجدّ كما الباشا وسط جلسائه؛ وأشجار النخيل الباسقة التي تحدّ القصر بفخامة ظاهرة؛ والإسطبل الذي ما زال يُروى عنه أنه يحوي أجمل وأعرق الأحصنة... لا شيء بقي من تلك الأبهة غير المنزل الخرب وشبر من المنبسط وبعض الأشجار

النحيفة. أما الباقي، فأمّمته الثورة الزراعية وسلّمته لأكواخ الكسالى. في مكان الحدائق السابقة، لم يزرع هؤلاء إلا مربعات البصل للبعض القليل، أما المساحات الأخرى فبقيت جرداء، تتخللها باستمرار سواقٍ تعجّ باليساريع والناموس.

أخيراً، وبعد طول انتظار، ظهرت الأمّ متبوعة ببناتها. قال قادة:

- لا تُكثرن الكلام، اكتفين بالمفيد.

قالت الأم:

- لماذا لا تأتي معنا وتتكلم في مكاننا؟ أتُريد أن تعلمني آداب المعاملات؟ لا تنسَ أنني ابنة قايد، ولن أتصوّر نفسي أتلعثم أمام هذه المتسولة السابقة.

أبعدته بحركة يد مقززة وخرجت، رافعة منخريها وبصرها باتجاه السماء.

قال تاج عصمان وهو يتكئ باسترخاء على كرسي الخيزران:

- هل اطلعت على الكتاب الذي نصحتك بقراءته؟

انزعج قادة من تطاول الميكانيكي. لم يجرؤ قط على تخطي عتبة دار عائلة هلال فيما سبق من الزمن. كان يفضّل الانتظار في الزقاق، خافضاً أذنيه. وحينما يتأخر قادة، يواصل الانتظار تحت الشمس أو تحت المطر. لا يكاد يحمي نفسه تحت قوس البوابة

الخارجية. ومُنذ رجوع الشيخ عباس، يعمل ابن عيسى العار على استرجاع نوع من القيمة، بطريقة متسترة نوعاً ما، ولكنها جادة. كانت نبرته تتثبت يوماً بعد يوم، بحذر ملحوظ، مغلفاً سلوكه بكثير من الملاءمة كي لا يُردّ. طفقت حركاته تتسع وتتسلل على مدى المناقشات، كما اكتست نظرته، الهاربة عادة، شيئاً فشيئاً، مواجهة نظرة الآخرين بجرأة. إنه صياد المواقف المناسبة، يترقب دوماً الفرص السانحة، الكفيلة برفع هِمّته بدرجة إلى الأعلى. يعامله الشيخ عباس معاملة حسنة. فبدأ بعض الإخوة يطلبون إليه خدمات. ولا يرفض تاج شيئاً لأي واحد منهم. إنها طريقته الخاصة في ضمان إعادة إدماجه. عند كل امتنان، مهما كان ضئيلاً، يشعر بأنه يُعيد استيلاء جزء غير يسير من مواطنته. بدأت تهدأ لديه كل تلك الوساوس الناتجة من المعاملات الدنيئة المرتبطة بتاريخ أبيه، والتي تتسرب إليه عبر تلميحات قاتلة تهمزه من هنا وهناك، والصمت الذي تجابه به تدخلاته عادة، فبدأت الشبكة التي تبقيه سجيناً بسبب أخطاء أبيه تتفتت مثل أسمال رثّة. إن تاج عصمان يولد من جديد. تماماً. إن اليوم الذي سيرى ولادته سيكون ذا طعم رماد. وهذا الأمر يعرفه الناس في غاشيمات ويرتعدون لذكره...

- أجِدُك ساهياً أيها المعلم.

- لست على ما يرام.

وضع تاج رجْلاً على ركبته بحيث أعطى عقب حذائه لمضيفه. ينفر قادة من مثل هذه المواقف. ويَعرف تاج ذلك جيداً. وبما أن محدثه اكتفى بصمت كئيب، تجرأ الميكانيكي:

- لأنك تعزل نفسك، هذا كل ما في الأمر. نادراً ما تأتي لسماع الشيخ. حينما أنصحك بكتاب، لا تظهر استعداداً لقراءته...

- أمرّ بمرحلة صعبة. أنا بحاجة إلى معرفة نفسي جيداً إزاء ما يحدث لي.

- أنت محق في هذا. إذا أردت الوصول إلى الحقيقة، حاسب نفسك كلما راودك الشك... ما هي مشكلتك بالضبط؟

- ليست مشكلة بالمعنى الحقيقي.

- هل تريد أن نتحدث عنه؟

- مسألة تخصني وحدي.

أدرك تاج ردّ الفعل الرافض ولكنه تجاهل الأمر.

- إننا نستنجد بالأصدقاء في مثل هذه المسائل الحساسة.

سكت قادة. تعمّد العبوس أملاً في رؤية الميكانيكي ينسحب. ولكن تاج تسمّر في مكانه. يجد متعة ماكرة في البقاء، في تأمل السقيفة والحديقة وآثار عهد أصابه اليوم خراب لا رجعة فيه. قال معترفاً:

- إنه منزل جميل. ولكن المظاهر خادعة وزائلة...

متى ستترك لحيتك تنمو يا قادة؟ الشيخ مُصّر. يجب حمل علامة الاختلاف. واللحية سُنّة نبوية أكيدة مثلما تعرف...

- من فضلك يا تاج.

رفع تاج يديه علامة الاعتذار. ذهب باتجاه الحديقة وقرفص أمام الأزهار. بدا المعلم مصدوماً وهو يرى ابن عيسى يظهر اهتماماً بالطبيعة، هو الذي تسيل منه الزيوت البالية طوال الوقت. انتابته رعشة، كما القرف، حينما أمسكت يد الميكانيكي بساق زهرة وسحقتها.

- كنت دائماً أحلم بحديقة مع كمّ هائل من أزهار القرنفل والياسمين ومسك الليل يتسلق الجدران وبعض أشجار الرمان.

لم ينبس قادة ببنت شفة.

مطّ تاج شفتيه في ابتسامة وقحة. فجأة تحوّلت عيناه إلى جمرتين متقدتين. قال:

- عليّ أن أذهب. حانت ساعة اللقاء مع الشيخ.

خرج تاركاً الباب مفتوحاً خلفه.

دخلت الأم إلى الفناء وهي تصرخ باكية:

- ابني يلطخ كرامتي بالوحل، يُمرّغ أنفي في زبل تلك المتسولة. كان عليّ أن أخنقه بين فخذي يوم ولدته.

قطعت الفناء كالصاعقة دون أدنى نظرة إلى ابنها، وبناتها في إثرها.

لم يحرّك المعلم ساكناً. بقي شارداً في زاويته مدة أطول من ثلاث دقائق. ثمّ، بدأ حلقه يرتعد، ويداه المتشبثتان بقميصه تشحبان عند الأطراف. تحكّم في أعصابه مدة طويلة، يقاوم رغبة تخريب كل ما يحيط به. تدفق الغضب عليه، مُدمراً، صاعقاً.

سارة لن تكون له.

ابتداء من ذلك اليوم، ترك لحيته تنمو، ولم يكن أحد يعرف إن كان ذلك تطبيقاً لتعليمات الشيخ عباس أم تعبيراً عن حداد على حلم طفولة قديم.

II

6

داكتيلو كاتب غاشيمات العمومي. لا أحد يعلم من أين أتى. في صبيحة يوم من سنة 63، اكتشفه أهل القرية في المكان الذي لا يزال يحتله إلى يومنا هذا، عند مدخل البلدية، تحت شجرة الدُلب الضخمة، جالساً خلف طاولة مطوية، رزمة أوراق في متناول يد، وقرب الثانية آلة كاتبة. في البداية بحث الناس في عينيه عن بريق جنون. في تلك الفترة، خرج البلد من حرب ضروس، ذاكرته مخربة، وعدد المجانين لا يحصى.

ولكن داكتيلو بدا عادياً. حركاته متناسقة. يوجد ذلك الهيجان الغريب فقط الذي ينتابه بمجرد أن يبدأ في الضرب على ملامس آلته الكاتبة التي كانت تسلي المتسكعين أكثر مما تقلقهم. كان أهل القرية يتصورون أنه سيأتي اليوم الذي يجمع فيه أدوات البؤس التي يحيط نفسه بها ويختفي بالسرعة التي ظهر بها. ولكن داكتيلو تسمّر في مكانه ولم يتحرّك.

أعجبته القرية. غاشيمات تشبه مسقط رأسه. إنها هادئة، كسولة، ولا تراودها فكرة التحول إلى قرية كبيرة. فبالنسبة إليها، لا يتعلق وجودها بالتلويث أو ببذل جهود مضنية؛ يكفي أن توجد هنا، على طرف درب أو عند عَطفة هضبة، تجلس القرفصاء وسط حدائقها، كي تشعر بنفسها مركزاً للعالم. للناس هنا سهولة الابتسامة وصِدق المعاملة، وخلافاً لأهل الحضر، فإنهم غير مبالين.

أُعجِب داكتيلو بالمكان المذكور من أول نظرة. وبما أنه لم يكن يُزعج أحداً، فقد تمّ تبنّيه. نادراً ما كان صوته يتجاوز دوائر شَفتَيه. كان طيّب القلب، خدوماً، مبادراً وكتوماً. وحينما لا يعذّب آلته، يقضي وقته في إتعاب عينيه في مخطوطات ضخمة وتأمل قمم الأشجار.

إن جلول المجنون هو الذي أطلق عليه اسم داكتيلو. سابقاً، كان الزبائن يتدفقون عليه من كل حدب وصوب، مُحمَّلين بالدجاج وأرغفة السكر وسِلال البيض. وحينما بدأ الناس يُحضرون له المعتوهين والمَصروعين والنساء العواقر، وجد داكتيلو مشقة كبيرة كي يشرح لهم بأنه ليس ولياً ولا درويشاً، بل كاتب عمومي، وأن وظيفته تقتصر على ديباجة الرسائل وملء الاستمارات للذين لا يعرفون الكتابة والقراءة. مرّ وَقْت

طويل قبل أن يفهم الناس. وبفهمهم تقلصت الطوابير، ونقصت القعقعة في ضواحي البلدية.

سأله جعفر وهّاب وهو يلاعب رِباط حذائه:

- ألم تسأم من هذه المهنة؟

هزّ داكتيلو كتفيه:

- لا أحد يجبرني على أدائها.

- هذا ما أقصده.

- تقصد ماذا؟

تظاهر جعفر بالبحث في جيوبه بسحنة حائرة. أدرك داكتيلو اللعبة. لقد تمكن من معرفة الجميع. نادَى طفلاً وكلّفه إحضار فنجانَي قهوة من عند عمّار.

- كم تدر لك هذه المهنة؟ أعبر لك عن إعجابي، حقيقة. أن تمكث هنا، من الصباح إلى المساء، تضرب على الآلة أو تطالع كتباً. أمر مُدهش، حقيقة. لو كنت في مكانك، لما صَبرت أكثر من ربع ساعة في هذا المكان.

عاد الطفل بالفنجانين، بخطى وئيدة، يتوقف كل ما تدفقت القهوة ولطخت الصحنَين الصغيرين. شكره داكتيلو، دسّ له قطعة نقود في اليد وسرّحه. أسرع جعفر لإشعال سيجارة. قال:

- أنا على وشك الجنون.

ابتلع داكتيلو جرعة، تلمّظ بتلذذ. لم يقل شيئاً.

يعرف أن جعفر جاء ليفرغ جعبته، كما في كل مرّة تنزلق الأمور من بين يديه ـ في كل يوم ـ وقد سئم من لعب دور العالم النفسي. إن جعفر لا يُرضيه شيء أبداً، ولا يعرف ماذا يريد بالضبط. باستثناء تعاطي الخمر والمخدرات، لا يعرف ماذا يفعل بحياته.

في الجهة الأخرى من الوادي، يُسرع تاج عصمان ومريدوه الخطى نحو مزرعة كُسافْيي حيث سيلقي الشيخ عباس خطاباً. كل يوم، تغادر مجموعة أكبر من المجندين الجدد القرية للالتحاق بالشيخ وتقديم الولاء. وتستمر الاجتماعات السرية حتى ساعة متأخرة من الليل. قال داكتيلو بنبرة كئيبة:

– إيّاك أن تلتحق بتلك العصابات، هناك.

– هذا ليس من طبعي، قال جعفر مطمئناً. إنهم يُضيّعون وقتهم. لا أحد سيمشي مع مؤامراتهم.

– أتظن ذلك؟ إن البلد هشّ كما غشاء البكارة. ليس إلا شعارات صاخبة في الواجهة، كذب مبالغ فيه. في الداخل، لا يوجد إلا الريح. أعرف بأنك لا تلاحظ الشيء الكثير، ولكن انظر إلى قريتك فقط، استرق السمع وحاول أن تلتقط ما تكتمه جدرانها، ما يخفيه سباتها، ما يحضّر في أعماق زواياها من دسائس. تَحدُث أشياء كثيرة يا جعفر، كما حبات البذور التي تتسرّب من كيس مثقوب، ونتغافل عن

جمعها فتنتشر. ستفرّخ الضغينة عما قريب. الغلّ يزحف ويستولي على القلوب.

سكت بغتة. انغلق وجهه مثل المحار. تفحّصه جعفر ثم نظر إلى مجموعة تاج. قال بلا اقتناع:

- ليسوا إلا أغبياء.

في تلك اللحظة، فرملت سيارة أجرة في صرير وسط القارعة، ناشرة غيمة غبار على الفلاحين الجالسين في الشرفة. خرج السائق، شاحب الوجه، واتجه نحو المقهى. تَحت وقع الحيرة، وقف بعض الزبائن وتجمهروا أمام الباب، مثيرين فضول الآخرين. لقد عاد السائق من المدينة توّاً. في العادة، لا يدخل القرية إلا مع سقوط الليل. انهار على المصرف، وشرب فنجانَين من القهوة تباعاً. سأله عمّار:

- هل ركب معك الشيطان ؟

انتبه السائق إلى أن الجميع يترقب شفتيه. وكي يؤجج فضولهم، طلب قهوة ثالثة.

- لا قَهوة ولا من يحزنون. ستفرغ ما بداخلك أوّلاً، وبسرعة.

جفف السائق وجهه بمنديل، ألقى نظرات ماكرة عبر فتحات أصابعه كي يقيس مدى الاهتمام الذي يوليه له الحاضرون. بعد ذلك، صاح راضِياً:

- إن الجزائر العاصمة تشتعل ناراً وتنزف دماً.

- ماذا تقول؟ هل هجم علينا المغاربة؟

- تمرّد الشعب، قال السائق شارحاً. آلاف الشبان نزلوا إلى الشوارع وأحرقوا وخربوا المحلات والبنايات الإدارية. لا يعرف رجال الشرطة كيف يواجهون الأمر. أطلقوا الرصاص على المتظاهرين. هناك عشرات القتلى. لقد أعلنوا ذلك في الإذاعة التي لا تكذب أبداً.

التهب الخبر مثل حزمة تبن. كان زان القزم هو أوّل من تحرك. تمكن من التسلل عبر السيقان وراح ينشره في الأزقة:

- الدزاير في حرب. مئات القتلى. الشعب ينتفض ضد السلطة.

- اشتعلت الدزاير وضواحيها، واصل فلاح. آلاف القتلى.

نزع شيخ عمامته، رماها أرضاً وركلها بفظاظة:

- قلت لكم بأنهم سيَعودون. لديغول حقد عنيد.

- لا يتعلق الأمر بالفرنسيين. إن الشَعب هو الذي يتمرّد ضد الكلاب الذين يستعبدونه.

أوقف الشيخ هيَجانه، غير مُصدّق:

- ماذا تحكي؟ يتَمرّدون على الرئيس؟ سأذهب الآن لأُخرج بندقيتي. لا أسْمح لأحد برفع يده على الرئيس.

القرية في غليان. يركض الناس في جميع الاتجاهات، ينادي بَعضهم بعضاً بالحركات. تسرع

النساء لإدخال أولادهن. إن الذبذبة التي انطلقت من المقهى وصلت إلى أقصى نقطة في المنطقة.

دفع الحاج موريس قبعته على رقبته كي يتفرّج على الفوضى العارمة. أوقف عيسى عصمان كي يسأله عما يحدث. ضرب عيسى كفاً بكف علامة الحزن.

- لقد حاصر المتظاهرون قصر الرئيس. يبدو أنه على وشك الاستسلام.

تدخّل زان القزم متحمّساً:

- يقال بأنه جُرح. يحتل الجيش العاصِمة، ولكن لم يتمكن المظليون ودباباتهم من إخماد المظاهرات. يتحدث الناس عن عشرة آلاف قتيل في الجانبين.

انتبه سائق التاكسي إلى أنه بقي وحيداً وسط الطاولات المهجورة. صعد ثانية في سيارته وأسرع يُخبر رئيس البلدية. وجده في حديقته يتحدث مع قويدَر رشام أحد المقاولين المحليين الأثرياء.

- هل سمعتم الراديو؟

ردّ رئيس البلدية الذي يبدو من نظرته أنه غير راض عن تدخل السائق المباغت:

- نسمع ماذا؟

- الدزاير تشتعل.

- رجال المطافئ ليسوا عندي.

- أقول لكم بأن انتفاضة شعبية خربت العاصمة.

الرصاص في كل الطرقات. الشرطة عاجزة. عشرات القتلى.

ربّت رئيس البلدية يدي ضيفه كي يعتذر له عن هذا الانزعاج غير المنتظر، اقترب يتفرس في هذا الكائن الثرثار غير المؤدّب الذي لم يكلف نفسه جهد الاستئذان قبل الدخول. ثم همس له بتلك الدماثة التي تخون غضباً مكتوماً:

- يا عزيزي، إن البلد على أعصابه. وعبارات اليأس ردّ فعل بيولوجي. قبل سنوات قليلة، في وهران، حضرنا هستيريا مماثلة. وقد تمّ العفو عنها لأنها طبيعية. أنتَ مثلاً، ألا يحدث لك أن تكسر الأواني على رأس زوجتك. وبعد أن يهدأ الغضب، تغض النظر عن الباقي. لا تهوّل يا صديقي، لا تهوّل. شعبنا ثرثار أكثر من اللازم. طويل اللسان وقصير الذراع. حينما ينتفض، لا يذهب بعيداً. ليس لديه تتابع في الأفكار، أتفهمني؟ أَمْرٌ جيّد أن يتسلى بإفراغ شحنة الغيظ من حين لآخر. إنها علامة صحة جيدة. غداً، سترجع الأمور إلى حالتها الطبيعية، سترى.

دفعه إلى الخارج.

- آه تذكرت، هل دفعت ما عليك من ديون؟

ابتلع السائق ريقه متلعثماً:

- ليس بعد، سيدي الرئيس.

- أترى؟ لو اهتممت بتسوية وضعيتك مع الضرائب

لكان أجدى لك من السماع إلى الإذاعات العدوانية؟

خفض السائق رأسه مرتبكاً:

- الحقّ معك سيدي الرئيس.

- هل أنت إطار مثلي؟

- لا ، سيدي الرئيس.

- هل صلاحياتك وطنية مثلي؟

- لا سيدي الرئيس.

- إذاً، اترك لإطارات الأمة حرية التصرّف لحل مشاكل الأمة.

- لا أعرف ما دهاني سيدي الرئيس.

امْتَطى السائق سيارته وانطلق بسرعة دون أن يلتفت وراءه. قال رئيس البلدية وهو يغلق الباب بفظاظة:

- أيها الغبي.

7

انبثقت قهقهة جلول المجنون وسط الصمت المطبق، طويلة وساخرة، مترددة بين النباح والصرخة الكئيبة. تعلمت النساء التُفل على نهودهن لإبعاد التعاويذ حينما يرتفع الصوت بهذه الطريقة في ساعة يشمّر فيها الليل أذياله عن جراح الصبح المتعفنة. حينما يطلق جلول ضحكته في الصبح الباكر، تخرس الأغاني الصباحية، وتختفي الكلاب في زواياها، الذيل منطوٍ تحت البطن والنظر لاهث. يتوقف العائدون من المسجد في منتصف الطريق، حائرين، الإصبع على الذقن، يبحثون عن الجهة التي سينبثق منها عواء الألم.

في هذه الصبيحة، تنبثق من عند عائلة كروم: لم يستيقظ سيدي صَعيم عند ارتفاع أذان الفجر. عثرت عليه حفيدته ممدّداً على الحصير، ووجهه مقابل الأرض؛ استغل الموت نومه ليخطفه من ذويه.

كان سيدي صَعيم عميد القرية. يملك حكمتها

وسلطتها الأخلاقية. إنْ لم يكن روح القبائل فإنه كان ذاكرتها. يُمثّل كل تجعّد في جبهته آية، وكل شعرة من لحيته نبوءة. كم من غضب مسعور انطفأ أمام نظرته، وكم من تهديدات تفتّتت عند سماع صوته. كان شيخاً محترماً في زمن الفرنسيين، وبعد ذلك ولياً صالحاً في حياته، يكتسي شرعية لدى الجميع، بحيث قرّر شيوخ القرية وبالإجماع أن يشيّدوا ضريحاً يحفظ له ذكراه.

قال عباس قاطعاً:

- هذا كفر...

نظر إليه الشيوخ المجتمعون مستنكرين. رفع الإمام عينيه إلى الشيخ الشاب الواقف على العتبة وقال له:

- يا ابني...

- لست ابنك... حان الوقت لوضع حدّ لهذه التقاليد الوثنية. لقد مات سي الصَعيم. هذا قدره ولا نستطيع فعل شيء إلا الترحّم على روحه. لم يبق لنا إلا أن نرده إلى التراب، بلا حزن ولا بهرجة. ومثل جميع عباد الله، سيدفن في حفرة عادية، بلا شاهد ولا كتابة من أي نوع. صلاة الجنازة هي الفعل المشروع الوحيد. وكل ما عدا ذلك بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار.

توقف بصره على ابن المتوفى، رجل في الخمسين، خجول وسقيم، ثمّ واصل:

- كيف تسمح لهم بأن يصنفوا أباك ضمن

المنحرفين، هو الذي لم يمنعه علمه من البقاء فقيراً ومتواضعاً؟ ماذا دهاكم يا مسلمي غاشيمات؟ حَمزة وما أدراك ما حَمزة يقبع في قبر بسيط، عار من اللحم ومن التراب، ليذكّر الأدعياء بتفاهتهم... ليس الجسد حينما تنزع منه الروح إلا نسيجاً مبتذلاً من الأكاذيب. لم تكن الديدان لتنخره لو كانت له أدنى قيمة عند المولى.

حاول الأعيان الاحتجاج. في الشارع، أظهر مريدو عباس وجوهاً عدوانية. فمنذ أكتوبر/تشرين الأول 88 الذي عَرف انتفاضة الشعب ضد غيلان النظام، خرج الإخوان المسلمون من السرية. إن التقاليد القبلية التي كانت تسيّر القرية والتي تمنح للبكر حقاً فوق الآخرين وتضع طاعة الوالدين واحترام المسنّين فوق جميع الحقوق، تُزعزع كل يوم أكثر من قبل المتمردين الشبان. حاول الشيوخ استرجاع سلطتهم ولكن تردداتهم المتكررة سمحت لأصحاب الشيخ عباس الشرهين، التوسُّعيين بشكل خطير، بالزحف المنتصر.

كان الحاج موريس أوّل من التحق بالمقبرة بسبب بدانته. إنه مُجبَر على التوقف كل مائة متر كي يسترجع أنفاسه. قال له الحاج منوّر لائماً:

- كان عليك اكتراء عربة.
- باه، من الأحسن للمرء أن يتحرك قليلاً.

- نعم، ولكن بهذه الوتيرة، سنتأخر عن مراسم الدفن.

- أمامَنا ساعة كاملة.

التفت الحاج منوّر فرأى الموكب الجنائزي يخرج من القرية.

- ها قد جاؤوا...

بادر الحاج موريس بحركة واهنة. قميصه يقطر تحت القيظ. اتكأ على عصاه ولم يتمكن من النهوض. أمسكه الحاج منور من الإبط وساعده على الوقوف، كاشفاً لطخة مبللة على الحجر الذي كانا يجلسان فوقه. قال الحاج منور في لهجة شاكية:

- يفعلون هذا مع سيدي صعيم. أليس هذا منكراً؟

- أنت تعرف بأن الأهرامات لم تسمح للمومياءات بالعودة إلى الحياة ثانية.

- تحميهم ضد النسيان.

- على كل حال لا تحميهم ضد البشر.

التحق بهم الموكب بعد حوالى مائة متر من المقبرة. الشيوخ في المقدمة، ولكن بلا هيبة حقيقية. لقد تنازلوا أمام عباس وها هم يجرون استسلامهم كمرض مخجل. انتشر الرجال حول القبر الذي انتهى عيسى عصمان من حفره. تركوه ينهي تنظيفه، ثمّ أمسك أحدهم المجرفة وطرده. قرأ الإمام كلمة على روح الفقيد، مُتلعثماً نوعاً ما. إن حزنه وسخطه يرشقان

كلماته، والدمعة التي من المفروض أن تحجم أمام العدوانية تلألأت على أهدابه مثل صرخة عاجز.

إن الأولياء الصالحين على أهبة الاندثار. يتلقون عاصِفة الإهانات مثلما تنزع أوراق الشجر في الخريف.

في المساء، شدّ لاعبو الدومينو رؤوسهم بالأيدي. الأزقة صامتة. والريح المغلفة بالغبار تَدور حول نفسها مثل جنّ مسعور. يتبختر تاج عصمان ومجموعة الملتحين المتشدّدين في الساحة. وكُلّما رُفعت العيون تجاههم أعلوا ذقونهم. لقد دفع زعيمهم الروحي الشيوخ إلى صف المرؤوسين. إنهم واعون بدلالة مثل هذا التنازل وليسوا مستعدين للاكتفاء به.

جثم زان القزم فَوق سور كما طائر الليل. تلمع حدقتا عينيه المتفجرتين بنار مرعبة. يعرف أن ثأره لقريب، وأن الوقت يشتغل لمصلحته. لاحظ الحاج علي:

- للصبر حدود.

راقب الإمام أُرفيّة كانت تحلق بسرعة جنونية حول المصباح الذي يزيّن جبهِيَة منزل الحاج موريس. في السماء الزرقاء، تتلألأ آلاف النجوم. خيّم الليل وغاشيمات تجد صعوبة في إغماض العين.

في الساحة ذات العطور الخفيفة، يجلس الشيوخ عابسين. برد إبريق الشاي ولا أحد مدّ يده لكأسه. من

حين لآخر، يرتفع صوت ويتحوّل مباشرة إلى زفير. قال الحاج بارودي:

- أتَساءل إن لم يكن من الحذر أن نسحب أولادنا من المدرسة. إن هؤلاء المعلمين يحشون رؤوسهم ويؤلبونهم ضدنا.

ردّ الحاج بلال موافقاً:

- الحقّ معك. إن ابني الذي لم يتجاوز العاشرة من العمر يواجهني بملاحظات فظة.

قال دحو الحانوتي:

- أبنائي وصلوا إلى حدّ التهديد. عند الرابعة صباحاً تجدهم واقفين مثل حراس السجون يوقظون أخواتهم بالركلات من أجل الصلاة. الوَيْل لمن تحتج. حاولت التدخل. دفعني ابني البكر بيده. لم يخجل ولو ثانية من حركة ذراعه الجافية.

قال الإمام مستنكراً:

- أستغفر الله. في يوم الحساب، ستنبثق من أحشاء الأرض نيران أعلى من الجبال، ومن جميع الكهوف يخرج الأقزام صارخين يحتلون المعمورة وينقضّون على البشر بسرعة أكبر من الوباء الصاعق.

صرخ الحاج علي:

- هل أصبحنا كفاراً دونَ أن ندري؟

دقّ أحد الباب. التفت الشيوخ خائفين:

- هل تنتظر أحداً؟

ردّ الحاج موريس متناعساً:

- لم أعط موعداً لأحد.

وقف دحو الحانوتي وفتح الباب. دخل الحاج بودالي يطن، ووجهه مرعوب:

- آه، أنتم هنا، شكراً لله.

- اجلس. أنت تشبه...

قال الحاج بودالي غاضباً:

- لم آت لنسج الصوف. لقد دامت هذه الوضعية أكثر من اللازم. علينا أن نتصرّف فَوْراً. تركت ابني شبه ميّت في البيت. لم أنجبه كي أخضع لاستبداده.

لاحظ الشيوخ لطخات الدم على جلابية الحاج بودالي. عصاه مكسّرة. ينزف جرح عميق في معصمه.

- أتمنى ألا تكون قد قتلته فعلاً...

- أتصوّر أنني سأتردّد؟ يصفني بالمرتدّ عن الدين، أنا أبوه وقد أديت ثلاث حجات. لم أسمح لنفسي قط برفع عيني على والدي رحمه الله. لم أجرؤ على زجر أولادي أمامه. كنت أقبل يده كلما التقيته. كان جاحداً، فظاً، شائكاً، غضوباً، ولكنني لم أنس ولو مرة واحدة أنه أبي قبل كل شيء. اليوم تعاملني ذُرِيَتي كما لو أنني إبليس، أنا الذي شددت الحزام إلى حدّ الوجع لإعالتهم وتعليمهم... (دفع دحو الذي حاول تهدئته

وعاد إلى الشارع صارخاً). سأقضي على هذا الشقيّ الوسخ. سيبيت هذه الليلة في قاع جهنم.

ركض الشيوخ للالتحاق بالأب المهان. بقي الحاج موريس وحيداً، فانكمش على نفسه في زاوية، واضعاً يديه على بطنه، مستعداً للنوم. ظهر تاج عصمان عند فتحة الباب وقال:

- سَمعْت أَصْواتاً.

- لا شيء. عد إلى بيتك.

هزّ تاج رأسه علامة الفهم. قبل أن ينسحب، تأمل الفناء العائم في النور، والحديقة المنسّقة بعناية فائقة، فلمع بصره ببريق غريب.

8

أضحت مزرعة عائلة اكْسافْيي مزاراً حقيقياً. تحوّلت الزريبة الكبيرة بعد صيانتها إلى قاعة للدعوة وهي تغص بالأتباع. ويضطر المتأخرون إلى الجلوس على أرضية الفناء، وآذانهم ترتعد تحت الخطب المقذعة. عُلِّق مكبر صوت في أعلى البناية لينشر نقد المتدخلين اللاذع عبر الريف، ينادي المارة من بعيد.

انتهز مُراد استراحة ليُشير إلى أعضاء مجموعته كي يتبعوه على أصابع الأرجل، متظاهراً بأنه لم يلاحظ الموقف الاستنكاري لتاج عصمان الذي أصبح يبادر أكثر فأكثر. بعد أن التحق بالجهة الأخرى من الهضبة، بعيدا عن الآذان الفضولية، أمسك مراد زان القزم من الرقبة وراح يلويها:

- أهذا هو حدثك العظيم؟ لقد ضيعت لي نهاراً بمهاترات غبية.

حاول زان التخلص من القبضة الخانقة.

- فكرت في أن هذا قد يُثير اهتمامك...

- لا علاقة لي بهؤلاء المجانين. أتراني رافعاً الراية والسيف وأطارد التعساء؟

دفع القزم الذي انطوى على نفسه يسعل بإفراط.

كان بوجَمعة مندهشاً. لمع وجهه ببريق عصيّ الفهم. قال:

- عباس عبقري.

غمغم إلياس الحداد:

- مَن أنتَ حتى تفرّق بين عبقري ودرويش؟ عباس يهذي، هذا هو رأيي. إنه صاحب أوْهام، لا أكثر. لا أطلب إلا الشرب في حفرتي. لا أزعج أحداً ولا أحب أن يأتي أحد لإزعاجي.

توقفت سيارة قربهم. أمال جعفر وهاب رأسه خارج البوابة، فمه مفتوح على اتساعه ووجهه كامن خلف نظارات شمسية ضخمة. أشار بإبهامه إلى علال سيدهم الجالس خلف المقود:

- ها قَد عادَ سائقي الوفي. هذا المساء، سنذهب إلى العاهرات، نستدرك ما فاتنا من الأيام التي بقينا فيها بلا نساء.

ردّ إلياس بدون حماسة:

- طوبى لكما.

- هيه، إن صديقي الشرطي سيتزوّج بعد شهرين. أنتم مَدعوون جميعاً.

- إننا على علم.

حيا جعفر المجموعة بيد وانقلب على مقعده محرّكاً رجليه في الفراغ، مسروراً مثل طفل. واصلت السيارة تدحرجها مرتجة فوق الحُفر. وصل سرب من النساء إلى القرية، تَحت الحراسة المشدّدة لرجل. يركب هذا الأخير حماراً، برجليه الطويلتين إلى حدّ ملامسة التراب. اضطر علال إلى التسلق فوق كومة تراب كي يفسح لهم الطريق. بعد قليل، التحق بعيسى عصمان الأعرج، يرزح تحت كيس دقيق من خمسين كيلوغراماً. قال جعفر:

- سيتكسّر ظهرك. ارمِ كيسك في الصندوق الخلفي واصعد معنا.

تمايل عيسى تحت ثقل حمله. قال دون أن يتوقف:

- على المذنب أن يتحمّل عقوبته وحده، يا وَلدي. شكراً على كل حال.

وبعد ذلك أسرع لفسح الطريق.

وقف رئيس البلدية أمام منزله. أشار إلى علال برَكن سيارته إلى اليمين. كان الشرطي مرتبكاً بحيث كاد يصدم صخرة. قال رئيس البلدية وهو يعانقه بحرارة:

- انْتَظرناك على أحرّ من الجمر يا ولدي العزيز. كيف كانت مهمتك إلى العاصمة؟

- يبدو أن الأمور على وشك الاستقرار.

- نتمنى ذلك. للبلد مشاكل كبيرة تنتظر الحلول

(أمسكه من المرفق وأبعده عن جعفر). رأيت العمال عندك. إذا احتجت إلى نقود، لا تتردّد. والدك وأنا كنا صديقين عزيزين. ثمّ إنّنا أصبحنا عائلة واحدة، أليس كذلك؟

- يشرّفني هذا سيّدي رئيس البلدية.
- حسناً.

عاد علال إلى سيارته، ارتبك مع دواسة السرعة. إلى جانبه، ضحك جعفر بداخله، متسلياً ومتعاطفاً في آن.

- هل بدأ يزعجك، صهرك الجديد؟
- اخْرَس، يمكنه أن يسمعك.
- أذناك حمراوان مثل الطماطم.

ابتعد رئيس البلدية. قبل أن ينطلق، رفع علال عينيه تجاه الحديقة حيث كانت تتظاهر سارة بسقي الأزهار دون أن تلتفت نحو الشارع. قال جعفر متنهداً:

- آه، لو كنت شُرْطياً.
- ظننت أنك تريد أن تُصْبح أسداً؟
- للأسَف الشديد، إناث الأسود ليس لها عُرف.
- احذَر يا جعفر. أنت تتحدث عن خطيبتي.

في نهاية عطلته، انتبه علال إلى أن قادة رفض لقاءه ولو مرة واحدة. لم يعد ابن عائلة هلال يغادر الشيخ عباس ولو قيد أنملة. حينما يلتحق ببيته، يرفض

استقبال أصدقائه. لاحظ علال أيضاً أن الشوارع سُلّمت للأطفال والكلاب والحقول المهجورة. في كل مكان، الجوّ مشحون بالغيظ الدفين. ليس للناس في أحاديثهم إلا اسْم واحد: عباس... قال عباس... فكر عباس... قرّر عباس... فقد الشيوخ سطوتهم. نراهم يلامسون الجدران، بلا أدنى قيمة تماماً مثلما يفعل عيسى عُصمان، العمامة كما الطوق المقيد. أنكر الحاج بودالي ابنه أمام الملأ. وقد لمّح أن حَجّته المقبلة ستكون بلا عودة، وأنه سيترك نفسه يموت في جبل عرفَة أو في غار حِراء. تحطّم شيء ما في رأسه. كل مساء، يذهب إلى الوادي لرجم الشياطين التي تسكنه، مقسماً أنه يرى ظلالها بين أشجار الدفلى. استسلم الإمام أيضاً. إن جمهوره الجديد، المتشكل من المراهقين والرجال الحَديثي العهد بلحاهم الكثة، ورؤوسهم المحلقة وعيونهم المكحّلة، لا يريدونه إماماً لهم على المنبر. يصفونه ببوق النظام وبتضييع الوقت في الأقاصيص القديمة. حينما منع ملتحيان داكتيلو من الدخول إلى المسجد، قال لجعفر:

- إن البهيمة المتوحشة قد استيقظت.

ردّ جعفر يائساً:

- فَلْيَذهبوا إلى الشيطان.

- إن الشيطان ها هنا...

9

يتربّع الشيخ رَضْوان فوق المنبر، بجلال في جلابية لامعة. إنه جميل وكبير وعملاق. تنحطّ يده اليمنى على ركبتيه، أشبه بصولجان. لقد جعلت منه تنقلاته المقدسة عبر الأقاليم الإسلامية وإقاماته الطويلة في السجون أسطورة. أقام بمصر والباكستان وماليزيا؛ وأينما حلّ تكتسي الأرض التي ركلتها قدماه بعشب مبارك. داخل المسجد، ينتاب الإخوةَ شعورٌ بالتطهّر بمجرد النظر إليه. ذهب البعض إلى حدّ جمع الماء الطهور الذي استخدمه للوضوء في قوارير. ويقسم الذين رأوه عن قرب أنهم اشتموا في رائحته عطور الجنة. اسْتبسل الكثير منهم من أجل لمسه بالأصابع؛ عرف الكثير منهم حالة نشوة بمجرد أن حطّ الشيخ بصره عليهم.

عن يمين المنبر، جلس على الوسائد قبالة الجمهور كل من الشيخ عباس وقادة هِلال وتاج عصمان وثلاثة رفاق لـ"مسافر النور"، وهم شاردون.

رفع الشيخ رضوان ذراعه ببطء كما لو أنه يزيل ستاراً مشتبهاً فيه. حبست القاعة أنفاسها. كلما ارتفعت الذراع انتاب الجمهور إحساس بالخلاص مثل الاسْتِزْفاع.

انطلق صوت الخطيب:

- رأيت نُصباً تذكارياً على الهضبة، مرتكزاً على مأبَضيه، يلقي بظله الملوّث، زيادة إلى اللعنة، على أمّة غافية.

تدفّق الصوت على المسجد مثل سيل جارف.

- قلت: "ماذا يفعل هنا "هُبَل"، الآتي من ظلمات الجاهلية" ؟ نظروا إليّ بازدراء وأجابوا: "إنّه مقام الشهيد." قلت: "توجد المقابر للأموات." ردّوا عليّ صارخين: " للمجد أنصابه التذكارية أيضاً. يَنْبغي لأولادنا أن يشربوا من منابع تاريخهم." قلت: "أين هذا المجد في رياض الفتح؟ في هذه المَحلات المشتبه فيها حيث تُعرض السراويل الداخلية مثل الغنائم؟ في هذه الحانات حيث السكر الدائم بلا خجل؟ في قاعات السينما حيث الخلاعة والانحراف؟ ... أين هو الشهيد وَسط وَكر الصعاليك هذا؟" لا، أيها الإخوة، لم يوجد البتة مكان للأموات، ولا للمعدمين أمثالكم في رياض الفسق... هناك، ينتشر نَهَم الخونة والمضاربة وصَعْلكة شعب مُهمل، مُعرض للغواية...

هزّ الجمهورَ ارتدادُ استنكار.

- رفعت بَصَري أبْعد من الهضبة فرأيت أفقاً صفراوياً، سماء تستغيث. فأدْركْت لماذا سلّط الله الجفاف على هذه البلاد، لماذا زلزلت الأرض بالأصنام، ولماذا لا تزال ترتعد تحت أقدامنا اليوم... قلت: "يا شعب الجزائر، ماذا تفعل تحت الخراب؟". لم يجبني أحد... ورأيت المحسوبية والأباطيل والتعسف والابتذال زاحفة، ورأيت الحشود تتمايل مزهوة باتجاه كهوف الهلاك... فقَد شعبي روحه ومعالمه، غمره اليأس. أصبح رأسه مزبلة الغرب. يُخصَب الكفر باعتباره تسامياً. يبيع مثقفونا أنفسهم للثقافات الهدامة، يمارس أولياء أمرنا جميع أنواع السلب والنهب، تتعرى نساؤنا باسم التحرّر والتفتح، ونحن تائهون في وضح النهار، تبهرنا نيران جهنم.

صرخ أحدهم في عمق القاعة:

- أستغفر الله...

- نَخَرني اليأس، فتدحرجت دروب الهضبة أملاً في لقاء رجال نُزَهاء أتقياء، بعيداً عن وكر الرذيلة هذا. ورأيت النبوءة هاربة تجرّ خلفها مرارة خيبة أملها، مهينة، ترهقها أسماله، بائسة وشاردة، مطلقة، مهمشة. وبدت لي مدينة قوم لوط هيّنة أمام مدينة الجزائر...

ارتفع صوت مستنكراً مثل التفجير:

- الله أكبر...

- حينَما نقول لهم: "يا ناس، إن ما تفعلونه

منكر"، يجابهوننا بنظرات محقّرة، واصفين استنكارنا بالتطرف الأصولي، ووجعنا بعدم التسامح، وقولنا السديد بالعصيان والتمرد، ويعاملوننا كما لو كنا أعداء. وحينما نقترح عليهم كتاب الله الكريم، يشهرون في وجوهنا كتابات ماركس وسارتر ودانْتي، ويمتّنون أمامنا أسوار شياطينهم، ويؤلبون ضدنا جلاديهم المتوحشين. ولكننا لا نعرف السكوت حينما يُهان الله تعالى في عُقْرِ داره. ونقول لهم، بلا خوف ولا تردّد، الويل للكفار، الويل للكفار، الويل للكفار.

فجأة ارتعدت اللحى، تشنّجت القبضات وانفجرت الصدور:

- اللعنة على حلفاء الشيطان، اللعنة على أمواتهم وأحيائهم جميعاً...

يوجد في الجهة الأخرى من غاشيمات آثار عتيقة جنّدت أجيالاً عديدة من الباحثين. عثروا على أوانٍ وأسلحة من الصوّان، كما وقفوا طويلاً على العلامات الألفية المخطوطة على البلاطات. حينما تقام الخيام في الموقع ويبدأ الحفر والتنقيب، يتحاشر أطفال القرية في المرتفعات المجاورة ويتابعون عمل علماء الآثار خلال الساعات الطوال. لم يفهموا الشيء الكثير لكل هذا الهرج والمرج. ومع ذلك، كانت قريحة أولئك

البهلوانيين الذين جاءوا من المدينة كافية لإدخال الفرحة إلى هضبة قتلها الضجر.

ذات يوم، نزل أمر باتر كالسيف، متعسّفاً وأحمق: رُفعت الخيام وبقي الموقع عُرضة للمخمورين والبطالين الفضوليين. كان المعبد سيختفي تحت مزبلة أوساخ لولا تدخل سيدي صعيم لحماية الموقع والتاريخ. انتَشرتْ إشاعة تقول إن المكان مسكون، وإن أشباحاً متمايلة تظهر في الليالي المقمرة وتُحدث صريراً صاخباً بسلاسلها، فيما تنبثق من جوف الأرض أصوات جنائزية لتفجّر الصمت، وتعبر الأذهان كالحسام الحاد.

يحب داكتيلو موقع الآثار. يلقي نظرة رائعة على السهل، كما تضيف السكينة لذلك الخلود مسحة سحرية. تَصل ضجة الغابة وضوضاء القرية إلى المكان خافتة، كما لو أن مصفاة تبتلع تنافر الأصوات كي تتسامى بالأحلام. بعد أوقات العمل، يأتي داكتيلو ليستريح ويتعجب من الأشياء البسيطة والجذابة التي تطبع حياة الليل السرية. لكن منذ فترة، نبش عزلتَه الحضورُ المزعج لجعفر وهاب، الغارق في السُّكر والشكوى، ولا يتوقف عن لوم الصمت على عجرفته والنجوم على شحوبها المنحوس.

فجأة تواصل من القريةِ صراخ الإخوة. أدار داكتيلو رأسه تجاه المسجد. تنهّد قائلاً:

- اتضح أن الشيخ رضوان محرّض على الحرق من الطراز الأول.

أعطى جعفر ركلة لقنينة الخمر التي أفرغها توّاً ونظر إليها تتدَحرج في الحفرة. قال مغمغماً:

- إنه الشيخ السادس الذي ينزل علينا في أقل من شهرين. على رئيس البلدية أن يمنعهم من الاستعمال التعسفي لمكبرات الصوت. لم نعد نسمع بعضنا بعضاً، زيادة على أن ضجيجهم يفزع الطيور.

وقف داكتيلو:

- لقد فُكّ قيد الذئاب، وما على الخرفان إلا الالتحاق بزريبتها.

- تتركني وحدي في هذه القفار؟

- اذهب إلى دارك.

- أبي غاضب عليّ. ألا تستطيع إيوائي هذه الليلة؟

تأخر عَلال عن العودة وأنا في حيرة من أمري.

كشّر داكتيلو، يداه على وركيه.

- أقسم لك أنني لن أزعجك بأسئلتي البليدة. من فضلك، لا تتركني وحيداً. لست على أحسن ما يُرام.

فكّر داكتيلو ملياً، ثمّ أشار إليه بمتابعته.

يختفي منزل الكاتب العمومي خلف صف من أشجار الخروب. ليس مرتبطاً تماماً ببنايات القرية، كما أنه ليس معزولاً وسط الحقول. كما لو أنه اختار منزلة وسطى كي لا يثير غيرة أحد. الدّاخل منظم ونظيف

ومُهَوّى، منقسم إلى نصفين بستار؛ المطبخ من جهة والغرفة من الجهة المقابلة. تحتل رفوف معبأة بالكتب نصف الغرفة. على الجدران المدهونة بأبيض شاحب، تعرض أطرٌ مطرّقة صوراً بالأبيض والأسود تبدو قديمة جداً.

- هل هي عائلتك؟

ضحك داكتيلو بصمت:

- في هذه الجهة... إلى اليمين، إنه أحمد شوقي.

- من هو؟ له هيئة باي.

- شاعر مصري، ربما أكبرهم جميعاً. أما هذا الشاب، إنه أبو القاسم الشابي. مات من السلّ في ريعان شبابه.

- وهذا الجندي؟

- غيّوم أبولينير.

- هل خاض حرباً ضدنا؟

- إن الشعراء لا يخوضون الحروب. تماماً مثل المسيح، يُضحّى بهم من أجل القضايا النبيلة... إلى اليسار، إنه نيكولاي أسْتروفسكي. هنا، توماس مان، وهناك محمد ديب.

- صاحب المسلسل المشهور؟

- لا أملك التلفاز.

- إنهم مسلمون؟

- إن هؤلاء الفتيان عباقرة. تُريد كل أمّة أن تنسبهم

لنفسها، ولكنهم ينتمون إلى العالم كله. إنهم وعي الإنسانية، الحَقيقة الوحيدة.

استدار جعفر نحو الكتب. لامست أصابعه بعض المجلدات، برفق، كما لو تعلق الأمر بتحف مقدّسة.

- هل قرأت جميع هذه الكتب؟

- قسماً كبيراً منها.

- كيف يحدث أنّك لا تحمل نظارات؟

تخلّص داكتيلو من سترته، شمّر قميصه عن ساعديه واتجه نحو المطبخ.

- توجد مجلات تحت الآلة الكاتبة. سيكون العشاء جاهزاً بعد حوالى نصف ساعة .

- هل تتولى تنظيف البيت بمفردك؟

- لا أملك إمكانيات توظيف شغالة.

- كان عليك أن تتزوّج.

أزاح داكتيلو الستار ليظهر وجهه.

- لقد وعدت...

رفع جعفر يديه علامة الاعتذار. وبعد صمت طفيف، أعاد الكرّة:

- أظن أنه ليس مشكلاً عضوياً.

ردّ داكتيلو ضاحكاً:

- أنت لا تعرف اللف والدوران. ما في القلب يطفو على اللسان.

ارتفع صراخ في الخارج، شلال من الشتائم البذيئة

وصياح. خَرَج الرجلان راكضَين واكتشفا، غير بعيد عن المنزل، مجموعة من المراهقين مدججين بالعصي والهراوات وينهالون ضرباً على موسى، شخص ناسك، ويصفونه بالسكّير وبحطب جهنم.

- هيي... ماذا تفعلون؟

انتشر الأطفال هاربين، مَزهُوين بنصرهم، تاركين الصعلوك ساقطاً على الأرض، رأسه ملطّخ بالدماء والقميص ممزق. أسرع داكتيلو لمساعدته على النهوض. دفعه موسى بفظاظة، ثمّ راح يحرك الغبار حوله، مُستنداً إلى أقدامه الأربع:

- الكلاب... أين وضعوا قنينتي؟ لم أفتحها بعد.

قال جعفر مقترحاً:

- تعال، لا تبق هنا. أنت في حالة يُرْثى لها، يجب أن أقودك إلى المستوصف .

فجأة، تجمّد السكير، رمق الرجلين من أعلى الرأس إلى أخمص القدمين، وصاح:

- لست بحاجة إلى أحد. جراحي، ألحسها وحدي، كما الكبير.

اسْتقام في حركة كبرياء أخيرة، سَوّى قميصه بيد متردّدة وابتعد يجرّ قدميه بعزّة نفس.

10

تنهّد جعفر وهّاب وهو يتصعلك في أزقة القرية:

- ها هو يوم آخر لا أُفُق له.

بلحْيته الكثّة، جلس إسماعيل عيش على صندوق خشبي يقطّب جبينه ويتابع صبيانه وهم يرسمون حروف الجبهة الإسلامية للإنقاذ على واجهة المدرسة. يتمَلْمل فرحاً عند كل ضربة ريشة. من حين لآخر، يُخرج عود عرق السوس من بين أسنانه ويلفظ بَصْقة على التربة المغبرة. حينَما يتوقف مارٌّ عند الكتابة، فإن كان من المتعاطفين، يسأله عن رأيه؛ وإن كان من المُتردّدين، يأمره بمغادرة المكان فوراً. وفي كلتا الحالتين يبدو راضياً عن نفسه، ثمّ بحركة خفيفة يسوي طربوشه الرشيق ويستأنف تنظيف أسنانه. بعد جدران المدرسة، سيذهب لخط خربشاته على جميع جدران المنازل. قبل قليل، حاول دحّو البقال الاحتجاج حينما رآه يكتب: انتخبوا ج.إ.إ. على واجهة حانوته. ردّ إسماعيل

بصرامة: "سندوّن ألفاظ الجلالة حيثما نريد، وسننسخ آياته على صفحات سجلك التجاري لو أردنا."

كان زان القزم قابعاً تَحت سقيفة يقترح سلسلة ذهبية للشيخ مسعود، المتاجر بالأشياء المسروقة. أدار هذا الأخير العِقد بين يديه الخبيرتين مرات عديدة، ثمّ عضّه كي يتأكّد من أصالة الحلية.

- أضمن لك أنها ليست مزوّرة.

- اخرَس، هذه مهنتي وأكره التدخل في شؤوني.

وافق زان بنفاق ظاهر.

- هل عَثَرت عليها في المدينة فعلاً مثلما تقول؟

- من هذه الناحية اطمئن، أقسم لك. إن صاحبها سوف لن يغامر أبداً في المجيء إلى هنا.

أخيراً، رفع مسعود عينيه، الشفة السفلى على وشك السقوط على الذقن. أوْحَت إليه نظرة زان المتوسلة موقفاً مريباً. انتظر مرور بغّال ليقول باستخفاف مزيّف:

- لا أريدها.

- إن تجارتك معنا رابحة دوماً.

- لأنني لم أعد ألعب بالنار. كرهت المشاكل مع الجيران. ولا أريد قلاقل مع الشرطة.

ألقى زان نظرة حوله مرتبكاً. تصلّب وجه مسعود:

- خمس مئة ألف، سعر مناسب؟

- لا... السِعْر لا يناسبني. أشمّ خطورة في هذه

العملية. تَصَوّر ماذا يحدث لو يعثر عليها مالكها عندي، سأنهي أيامي في السجن. ومَع داء المفاصل الذي ينخر عظامي، لن أصمد أكثر من أسبوع. لا ، بكل صدق، العملية خاسرة منذ البداية.

– أربع مئة؟... اقتَرِح سعراً يرضيك. نحن في زمن الديمقراطية، أليس كذلك؟ الأسعار تُناقَش. ثلاث مئة وخمسون. لا أستطيع النزول أكثر. إن هذه القلادة تساوي عشر مرات ثمن شرائها.

تناول مسعود العقد مرة أخرى، بلا تسرّع، تأكّد من كل حلقة، ماطاً شفتيه، كي يؤجج ارتباك القزم.

غير بعيد من مكانهما، دعا الحاج موريس جعفر لتناول كأس شاي. قرفص هذا الأخير قرب المائدة وشرب بيأس.

– لا تبدو على ما يرام، يا وجه الصائم.

– وجه الصائم هو علال. أما أنا فسحنة لا شيء.

قال المعلم السابق متذكراً:

– هذا صحيح. كان مريضاً دوماً وأنت المنافق، ولكن حماقاتكما كانت متشابهة .

– إنه تدارك الأمر مُنذ زمن.

– وأَنتَ؟

– أنتظر القطار المقبل.

أدرك الحاج موريس ازدراء تلميذه القديم واكتفى بتجفيف العرق بمنديله. إن جعفر تعيس. لم يتوقف عن

إضاعة وقته في التسكّع من طلوع النهار إلى غروبه. يحدث له أحياناً مناجاة نفسه، وكلما مرّ قرب منزل الشيخ الحاج موريس ينبعث في نفسه القلق أكثر.

- حينما أفكر في إنشائك المعوج...

قال جعفر بمرارة:

- هذا ليس لي. إنه لقادة هِلال وهو اليوم معلم القرية.

- إنها الحياة.

ابتلع جعفر شايَه وانسحب ناسياً شكر الشيخ. عند زاوية الزقاق، وقع وجهاً لوجه مع قادة. ألقى الأخ نظرة إلى أسفل جلابيته وغمغم:

- احذر أين ترمي قدميك. كدتَ أنْ تلوّث قميصي.

تأخّر بَصر جعفر على الكتب الدينية التي يتأبطها رفيق أمْسه. وجَده قد تغيّر بلحيته العدوانية وحدقتي عينيه الشبيهتين بعيني زواحف.

- لماذا تُعامِلني بهذه الطريقة يا قادة ؟ ماذا فعلت لك ؟ لمَ تلومني بالضبط ؟ أفهم أنك تتجنبني؛ ولكن أن تحقد عليّ إلى حد الموت، فهذا لا يدخل رأسي أبداً. قبل أسابيع قليلة كنا متّحدَين كأصابع اليد الواحدة. ثمّ فجأة ودون سابق إنذار، لا يصدر منك إلا الازدراء والفظاظة. ماذا حَدث لك يا ابن هِلال؟ لماذا تكرهني؟

ردّ قادة مُقهقهاً:

- أكْرَهك أنت؟ أتتصوّر أنّني فارغ شغل مثلك؟ لا أكاد أنتبه إلى وجودك.

- لست عدوّك على كل حال...

- ليس للعمالقة أعداء بين الأقزام.

أبعده بحركة اشمئزاز ثمّ واصل طريقه باتجاه المسجد.

داخل الخبازة، يتحدّث بلقاسَم مع الطيّب، سائق العربة. خرج عيسى عصمان من غرفة مجاورة، مُغَشى بالدقيق من الرأس إلى القدمين، أنزل كيساً، وضعه على ظهره ودخل الفرن. عاد ليحمل كيساً آخر. في اللحظة التي تحرّك تحت ثقل الحمل، انزلق الكيس من على كتفيه وانشق على الأرض. انفجر الخبّاز غاضباً:

- أيّها الأحمق، أين كان رأسك؟

قرفص عيسى، مُرتبكاً ومرعوباً، وراح يجمع الدقيق بيديه ويُعيده إلى الكيس .

- هكذا أيها الأبله... الآن سيكسّر زبائني أسنانهم على الحصى.

ردّ عيسى بصوت مرتعد:

- سأصلّح الوضع... أنظف الدقيق...

- أنا الذي سأصلّح وجهك يا حمار. أنا متأكّد أنك تعمدت ذلك وستدفع الثمن غالياً.

صفق صوت خلفهم:

- كم هو مدين لك؟

كان تاج عصمان واقفاً في زاوية الزقاق. يستشيط غضباً ولكنه حافظ على هدوئه. تقدّم نحو أبيه، أمسكه من طوق سترته وأمره بالوقوف. حاول بلقاسم التدخل، دفعه تاج بيده وأمره بعدم حشر أنفه. قال الخبّاز معانداً:

- إنها قضية بيني وبين والدك. إن هذا الغبيّ...

- كلمة واحدة في غير محلها وأعمي لك عينك.

لم يصدق بلقاسم أذنيه. لم يجرؤ ابن عيسى العار على رفع عينيه أمامه قطّ، ناهيك عن الصوت أمام ناس غاشيمات. بحَركة فظة، نزع سترته. أدرك المتسكعون قرب المكان أن الشجار لا مفر منه. تجمّعوا بسرعة حول الفرن، مسرورين لكونهم سيشاهدون مباشرة معركة حامية الوطيس، رغم التظاهر بالاستنكار لحثّ الرجلين على عدم الاكتفاء بالشتائم مثل النساء. كرّر تاج سؤاله:

- كم هو مدين لك؟

يبدو أنه لم يكن متحمساً للمبارزة.

- جميع أسنانك أيها الكلب.

مباشرة انطلقت قبضة بلقاسم، قوية، ولكنها واثقة جداً. تجنّبها تاج وتصرّف بفظاظة نادرة. بَعْد ضربات قليلة مباغتة، وجد الخباز نفسه منهاراً على الأرض، وجهه ملطخ بالدماء. ارتمى تاج عليه مواصلاً الضرب بغضب فظّ. صرخ الأب:

- يكفي... ستقتله...

استعاد تاج هدوءه، مرّر ذراعه على جبينه المتصبب عرقاً، أخرج بعض الأوراق النقدية ورماها بلامبالاة على الجسد الممدّد أرضاً. قال رافعاً صوته كي يُسمع الحاضرين:

- ابتداء من اليوم، لا أحد في هذه القرية مدين لنا بدينار واحد.

بعْد العودة إلى البيت، أمسك تاج أباه من الكتفين وقال:

- انتهى كل شيء، أتَسْمعني؟

- ما هو الشيء الذي انْتهى يا ولدي؟

- الإهانة... الإذلال... ابتداء من هذه اللحظة، سترفع رأسك وتمشي مستقيماً وسط أهل القرية. ولا أحد ستكون لديه الشجاعة ليحتقرك مثل السابق، أعدك بذلك. سأغلق أفْواه الجميع دفعة واحدة.

بحزن ظاهر، حرّك عيسى رأسه بالنفي:

- وما الفائدة من كل هذا يا ولدي؟ إنهم جميعاً لا يساوون حبّة خردل. رأيتِهم يتسَوّلون، ليس خبزاً أو نقوداً، ولكن قليلاً من العطف. يحسنون أفضل من غيرهم تقبيل يد "القايَد" ولحس نعليه. حينما يلصقون بي اليوم كل تهم الدنيا، فإنهم لا يفعلون إلا اتهام بعضهم بعضاً. بالرغم من أنهم يبصقون عند مروري، فذلك لن يغسلهم من الفتات التي كانوا يتغذون بها

سابقاً حينماً كانوا ينادونني "سيدي" وهم يتصاغرون أمامي. لم يُعِد لهم الاستقلال الاعتبار. سَمح لهم فقط بالنسيان، نسيان نذالتهم وتفاهتهم، الانتقام من ضحايا لا حول لهم ولا قوة لأنهم عاجزون عن التسامح، وأقل من ذلك التمييز بين الأمور.

بعد أسابيع قليلة، تلقى عيسى عصمان دعوة لحضور حفل ختان. ظنّ أنها مزحة، فامتنع عن الذهاب. وبعد ذلك بأيام، جاء بائع ماشية ثري يبحث عنه بنفسه. وكم كانت الفرحة كبيرة حينما أدرك عيسى أن السيارة الفاخرة اللامعة التي توقفت قرب كوخه جاءت من أجله. بعد أيام أخرى، أدرك أن الأشخاص الذين كانوا يستغلونه بعد أوقات العمل، تلك السُخرات الإضافية، تلك الخدمات المستحيلة التي تطلب إليه في أي وقت من أوقات النهار والليل، أخيراً كل تلك الأشغال القاسية التي تساعده على جمع دريهمات يعين بها عائلته في أيامه الصعبة، كل هذا سينقصه ويفقر عالمه ويقلل من مدخراته. أصبح الناس يحترمونه، يستمعون إلى أقواله. بين عشية وضحاها، انقلبت حياته كلية. في كل مرّة يقترح خدماته آملاً جني بعض القطع النقدية، يقال له: "يا سي عيسى، إن هذه الأعمال ليست لك". ويتصنّع عيسى الدهشة، ساخراً ومرتبكاً في آن واحد، يضرب جبينه بيده ويردّ قائلاً: "صحيح، فأنا عبد مُعتق الآن".

لم يتصوّر قط أن بإمكانه التصرّف بهذه الوقاحة، كما أنه لم يشك بأن القيم الأساسية ستنقلب رأساً على عقب، وستتغيّر من النقيض إلى النقيض. حينما يمشي في الأزقة ويرى جلاديه بالأمس القريب يحيطونه بعنايتهم كأن شيئاً لم يكن، ويسمعهم يقهقهون بملء أشداقهم عند كل حماقة يتلفظ بها، ينتابه فجأة خوف مما يحدث له ويندم أحياناً على أنه لم يبق ذلك المنبوذ الذي كانه، ذلك أنه لم يعرف العار الحقيقي إلا حينما ارتفع إلى مصف النبلاء.

11

قالت غالية ملحّة:

- احذَر من عاقد الشرائح. لا تلتقط مفتاحاً ولا سكيناً مشتبهاً فيه إذا أردت لابنك أن لا تنكمش رجولته في اللحظة التي يكون شرفه بحاجة ماسة إليها .

وافقت والدة علال سيدهم، خائفة وهي تستمع بعناية إلى تعليمات أختها.

دخلت الأختان إلى غرفة العروسَين، وبخّرتا الزوايا وهما تتمتمان بالأدعية. وضَعت غالية الموقد الفخاري الصغير المدخن على الأرض، أخرجت من حجرها تميمة، أدارتها سبع مرات فوق رأسها قبل أن تدسها تحت الفراش:

- يا سيدي يعقوب، اجْعل عروستها مُحبة أكثر من قطة، خصبة أكثر من أرنبة وأوفى من كلبة.

طفقت النساء يتدفقن على منزل سيدهم. ترتفع الزغاريد حسب حماستهن، بعضها صاخب، وبعضها

الآخر ساخر. هاجت الدرابيك الفخارية بمجرد جلوس صاحبات الجوق الموسيقي، فتعالى معها صراخ الأطفال. تحزّمت الأرداف والأوراك بالمناديل وبدأت ترتعد في رقصات شيطانية، غير عابئة بالنظرات المستنكرة للفتيات المحجبات.

كان علال وأصحابه يقضون الليلة عند إلياس الحدّاد في مولاي نعيم، القرية المجاورة. في الساحة، تمدّد زان القزم منكمشاً ومُنزلقاً بهدوء في غيبوبة كحولية. لقد لعق من جميع الكؤوس ودخّن من جميع السجائر. يؤدي تاج عصمان، الذي نصّب نفسه وزيراً ناصحاً للعريس، دوره الموقّت بجدية وزُلفى مبالغة. ينتقل من ضيف إلى آخر يسأل عن راحتهم. تفحص علال ساعته حائراً:

- لقد تأخروا...

ردّ تاج مُطَمْئناً:

- أكيد بسبب الحرارة. ربما قرّروا انتظار ساعة أرحم.

يبدو علال قلقاً. جلس ومسح يديه النديتين بمنديل. لاحظ بسحنة عابسة:

- قادة أيضاً تأخّر كثيراً. لا تقل لي بسبب القيظ هو أيضاً.

نطق جعفر الشارد بنبرة ناصحة:

- ركّز ذهنك في العرس. تلقى الجميع الدعوة

لحضور حفل زواجك. وإذا وُجد غيور بليد امتنع عن المجيء، فليذهب إلى الجحيم.

ثمّ أضاف بعد صمت خفيف وهو يقدّم له عجينة داكنة:

- خُذ... وذُق وقل لي ما رأيك. لها فضائل شهوانية رهيبة تفجّر قفلاً حديدياً.

دفع إسماعيل عِيش باب الحديقة وكاد يركل زان النائم وسط الممر. صرخ:

- ما هذا الزبْل؟

ثمّ حطّ هدية ضخمة أمام علال. ودون طلب إذنه بالفتح، قطع الحاشية بضربة موسى، نزع ورق التغليف وقال:

- هدية الشيخ عباس. لوْحة تمثل خطّاً عربياً مذهباً على عمق مخملي أسود. إنها آية الكرسي. ستحميك من المخالطات السيئة.

- أشكر عباس من طرفي.

- هذا ما ينبغي أن يكون يا شرطينا العزيز، سينفث فيه سروراً عظيماً. لا تلمني إن قررت أن لا أبقى مع أصحابك. تحوم حولك تأثيرات مريبة.

أنارت غاشيمات مصابيحها العمومية أبكر من الأيام العادية. قدّر رئيس البلْدية أن المناسبة تستحق بعض النزوات. لا يزوّج المرء ابنته كل يوم. على

جوانب الهضبة الجرداء، يطارد الليل آخر ثغرات النهار ليلفظها باتجاه قمم الجبل. في رطبة الغسق، تحلق نغمات الدرابيك المتحمسة لتتيه عبر الحقول.

ارتدى علال سيدهم البذلة الجديدة التي اقتناها خصوصاً لهذا اليوم المشهود والتحق بأصحابه في الساحة. بغتة، استفاق زان القزم من حالته المخدرة. أعلن تاج بنبرة رسمية أنه حان وقتُ الالتحاق بالعروس. صفق بيديه وطلب إلى الضيوف الخروج. في الزقاق، ينتصب جواد أصيل مسرّج، يحرّك قائمة على التربة المغبرة، مُعلناً قلقه. التفّ الأصحاب حول علال وساعدوه على الركوب. مباشرة، انطلق الموكب وسط مدائح وصيحات وطلقات نارية تفوّهت بها بعض بنادق الصيد القديمة.

جلست سارة على سرير الزوجية، يداها المرتعدتان على ركبتيها. لا يستطيع الشاعر أن يوضح لنا ما الذي أعطى للغرفة هذا الضياء الرائع، هل هو نور المصباح الصغير على طاولة السرير، أم جمال هذه العروس بملامحها الصيفية الشقراء. قرفص علال أمامها، أخذ يدها برفق. لامست شفتاه تلك الأصابع المزينة بالحِنّاء، برعونة بحيث أنه تناسى تقبيلها. رفع النقاب الشفّاف الذي يغطي وجهها، ببطء، كأنه خشي أن يتبخر وجه حبيبته الوضاء كالحلم الذي لا نتمكن من

الإمساك بملامحه. تفتّحت عينا سارة واسعتين مثل حقل ربيعي. وبسبب هذه النظرة ذات البريق السامي، نسي علال الحشد المتجمهر في الخارج مطالباً بضوضاء ظاهرة بفستان الحقيقة، فستان الشرف.

في منزله الذي خيمت عليه العتمة، كان قادة هلال يستمع إلى الموكب وهو يقترب، وينتظر كما ينتظر السَجين لحظة إعدامه. غادرت أمه وأخواته القرية باتجاه المدينة تفادياً لحضور الحفل. أما هو فبقي مُسَمّراً قرب النافذة، يتمنى الطوفان لأهل القرية جميعاً. لم يذق طعم الأكل منذ الصباح. حينما جاء تاج عصمان يبحث عنه، تصرّف كما لو أن المنزل فارغ. بعد ذهاب تاج، خرّب المعلم الحديقة، ثمّ التحق بغرفته ليحطّم كل شيء. عندما رأى الموكب الأوّل، مَوكب سارة، تمتم بلعنة حاقدة. الآن، ها هو علال يمتطي جواداً ليلتحق بعروسه. مرّ أمامه، على مدى ذراع من شقائه، جميلاً وَضاءً، محاطاً بأصدقائه المزهوين، المقهقهين. انهارت ساقاه تحت جسده، وتمنى الموت قبل أن يلتحق بالأرض.

III

12

ذات صبيحة شاحبة، تقدّم قادة هلال إلى مزرعة اكْسافِيِي، منهاراً، مختل الهندام ومتسخاً. تدلّت لحيته على صدره مثل شبكة العنكبوت. تظهر على قميصه ذي الأزرار المفكّكة لطخات عريضة من القيء الجاف. تتثاءب نعلاه اللتان هدتهما دروب الترحال مثل أفواه الضفادع. يمشي بصعوبة، يتشبث تارة بجدار، وتارة بكتف، يتوقف من حين لآخر ليتمخط أو ليلتفت حوله بحثاً عن شيء مجهول. في الفناء الشبيه بساحة الأسلحة، يتأمله المريدون باندهاش ويحوّلون أنظارهم كلما حطّ بصره ببؤس على أقدامهم.

أحاطه إسماعيل عيش بذراعه وساعده على الولوج إلى الغرفة البسيطة حيث كان الشيخ عبّاس خاشعاً بعد الصلاة. إنها قاعة منعزلة، بُنيت على عجل، تضيئها كوّة مرتفعة هزيلة ذات إضاءة خافتة. بجمجمته الحَلِقة والمدهونة، يجلس الشيخ على حصير، متربّعاً وأمَامه

حمّالة صغيرة عليها مصحف. تحرّك أصابع يده كريات سُبْحة. خلفه، تنتصب مكتبة ضامرة تَحوي بعض المجلدات الضخمة. ولا شيء داخل الغرفة: لا كرسي ولا مائدة ولا إناء ماء؛ جدران عارية فقط، وفي زاوية معتمة يحترق عود عطر مطلقاً نفثات دخان لا تكاد ترى.

سعل إسماعيل في قبضة يده كي يجلب انتباه الشيخ ثمّ انسحب راجعاً إلى الوراء. لم يرفع عبّاس رأسه. أشار بإصبعه إلى زاوية الحصير. جرّ قادة قدميه إلى المكان المشار إليه وسقط على ركبتيه. انقلبت صفحة الكتاب في رعشة خفيفة. واصل الشيخ قراءته بهدوء ثمّ قال:

- ما هذا الغياب يا ابن هلال؟

أدخل قادة رأسه في كتفيه:

- لا أعرف...

- إننا نبحث عنك مُنذ أسابيع. كأن الأرض بْلَعَتك فجأة.

- مسّني الضرّ وهيّجني الغضب. مشيت وحدي خلال أيام وليالٍ دون أن ألتفت ورائي. أردت الاختفاء عن الأنظار. تمنيت الموت.

جذب الشيخ عبّاس حاشية المجلّد، وضعها على الصفحة وأغلق الكتاب. تفرّس في تلميذه طويلاً قبل أن يمدّ يده ويرفع له ذقنه. تراجع قادة خجلاً:

- لا تدنّس أصابعك بلحمي العفن يا شيخ. أشعر بنفسي متسخاً إلى حدّ القرف.

- إن جَميع البشر مُتسخون بطريقة أو بأخرى. الفَرْق الوحيد هو أن البعض يُطهَّر بكأس ماء، فيما لا تكفي مياه البحار كلها لتطهير البعض الآخر.

انهار قادة تحت الخزي، واهتزت كتفاه من فرط البكاء.

- أذْنَبت يا شيخ... أذنبت...

- لا أحد معصوم من الخطأ. ادع ربّك بالتوبة النصوحة في خشوع واستسلام. إذا كنتَ صادقاً فلا أريد أن أعرف ما فعلت بأيامك الضائعة.

من جديد مدّ الشيخ ذراعه. أمسكت يده رقبة قادة المرتعشة، فانكمش هذا الأخير على نفسه بحثاً عن الحماية.

أكنتَ تُحبّها إلى هذا الحدّ؟...

أحس الشيخ أن الجسد المنكمش يتصلّب تحت راحة يده. واصل قائلاً:

- أنا على علم بمحنتك. لا تملك غاشيمات جدراناً سميكة كي تمنع أسرارها من الانتشار. ومع ذلك، ينبغي أن تعلم أنه لا توجد امرأة في الدنيا تستحقّ أن يذرف رجل دمعة واحدة من أجلها. وليست سارة أفضل النساء. صَحيح أنها جميلة ومغرية مثل الأوهام تماماً. وإذا جعلها القدر زوجة لرجل آخر،

فاعلم أنّه أنقذك من هلاك محتمل. رُبّ ضارة نافعة... إن الحب سلوك ذليل، وظيفة دنيئة. إنه دور النساء ووظيفتهن كي يستحققن عطفنا وصدقتنا. تبدأ مأساة البشر حينما تحظى امرأة بحب الرجال في حين لا حق لها إلا الرضا المعتدل من سيّدها.

- أُحبها منذ طفولتي الأولى.

- أنت لست طفلاً الآن. ينبغي لك نفيها من تفكيرك. توجد في القرية عذارى لائقات وحافِظات لفروجهن بحيث لم ينتبه إليهن الكثير. أنتَ لا تراهن، وغيرك أيضاً لا يراهن وهذا أفضل... ليست سارة إلا منحرفة فاجرة تسكنها العفاريت الشرِّيرة. تخرج للناس بلا خمار، الساق عارية، وترفع صوتها في الشارع. إذا كانت الصدفة قد أزاحت عن طريقك النبتة السامة، فلأن سارة لا تستحق حتى أن تدوسها بقدميك.

شعر قادة هلال بحزن وهو يسمع الشيخ يتَحدَّث بهذا الاشمئزاز عن حبيبته. مسح منخريه بحركة خافتة.

- إني بحاجة إلى الوقت كي أتَغلَّب على هواجسي يا الشيخ. أريد الذهاب بعيداً من هنا. أرى نفسي عاجزاً عن التعقل إنْ بقيت بقربها.

- نحن بحاجة إليك في صفوفنا. لقد بدأت حملة الانتخابات المحلية. أريد أن أجعلك رئيس بلدية غاشيمات.

- يجب أن أُسافر.

- لتذهب إلى أين؟

- إلى أيّ مكان... الجزائر العاصمة، سْطيف، بِسْكرة. لقد كَثُر عددنا الآن. البلد في قبضتنا. سأكتفي بأية وظيفة: كاتب عند شيخ ما، قيّم في مسجد، جنديّ من أجل القضية...

أدرك الشيخ أن عليه اختيار مرشح آخر للمنصب البلدي. تخندق خلف لحيته للتفكير. استأنفت كريات سبحته تحرّكاتها بين أصابعه.

قال قادة متوسّلاً:

- لقد سبق للجبهة أن بعثت مُتطوعين إلى أفغانستان. أريد التوبة والأسلحة بيدي. من فضلك يا شيخنا المبجّل، ساعدني على الالتحاق بالمجاهدين.

تلألأت عينا الشيخ. مباشرة، أدرك قادة أن طلبه قد مسّ وتراً حساساً، وأن أسابيع التيه قد تمحى بسرعة.

بلغته الموافقة بعد مرور حوالى شهر. لمْ يَبق أمام قادة إلا وقت قصير، فدسّ في جرابه قميصاً وسروالاً وكتباً دينية ليجد نفسه مستعداً للسفر. لم يقل شيئاً عن مغامرته لأمّه التي راقبته بصمت وحيرة. غادَر المنزل دون أدنى نظرة للجدران التي كانت شاهدة على طفولته وشبابه، دون أدنى إشارة باتجاه الذين أحبّوه.

انتظره تاج عصمان في الزقاق، متبختراً في عباءته الأفغانية. دلفا داخل سيارة شاهرة علماً أخضر وطافا عبر أزقة القرية، تطاردهما جماعة أطفال صائحين.

أوقف الفلاحون الجالسون في شرفة المقهى أحاديثهم وتابعوا بنظرة كئيبة المركبة المغلّفة بالغبار مسرعة باتجاه مزرعة اكسافيي.

ارتفعت صيحات في اللحظة التي مسّت عجلات السيارة حصى الساحة العريضة. جميع الإخوة حاضرون، مُتحمّسون ومنبهرون. حطّ قادة قدميه على الأرض. بدا له أنه يمس عُشْب الحدائق السماوية الدائم النضارة. تدفق الحشد باتجاهه، تصارعت الأذرع للمسه، والشفاه لتقبيل عباءته برغم نداءات تاج إلى الاتزان والهدوء.

ظهر عبّاس على عتبة قاعة الاجتماعات بهيئته المهيبة، الضامرة من فرط التعبّد والتقشف، فهدأت العقول. ابتسم: شقّ يسمح برؤية طيف من الجنة. بيد حامية، يدعو المبعوث للاقتراب.

- يجب أن تعلم أن قلوبنا معك حيثما ذهبت يا ابن غشيمات البار. سنسلّح ذراعك حينما يجمده البرد، سنمنح لك يقظتنا لتُقاوم الليالي المرعبة، وستهيمن صلواتنا على صخب الأسلحة كي نؤجّج الضغائن. اذْهَب يا قادة هلال، اذهب وقل للكفار إنهم لن يقدروا على وقف زحف الإيمان الجارف. اذهب وقل للعالم إن الإيمان والشجاعة فِطْرتان حبانا الله إياهما، وإن الجهاد سيجعلنا نقطع البحار والقارات بقفزة واحدة... اذهب، رافقتك عناية الله وبركة الشيوخ.

حطّ الشيخ شفتيه على رأس المريد. انتابت الجميعَ رعشةُ رهبة، وأصاب البعضَ هيجان ذهولي.

بعد شهر، نجحت الجبهة الإسلامية للإنقاذ في انتخابات البلدية نجاحاً ساحقاً. رفعت أغلبية البلديات شعارات أصولية على واجهات بناياتها. احتفلت غاشيمات بالنجاح مدّة سبعة أيام وسبع ليالٍ، بالزغاريد وإطلاق البارود. في الشوارع، يقوم الشباب باستعراضات حماسية بلا توقف، يستفزون السحن المذهولة. داخل المسجد ظهرت رؤوس جديدة، تعتز بالشُعَيرات التي بدأت تغطي الخدود والتي تَعِد بلحى كثة. انتهى المطاف ببعض شيوخ القرية إلى الاصطفاف خلف مُراهقين منتشين، بلا أدنى حرج. إن تقلب الأفكار عربون السلوك القويم. باهتمام ملحوظ، يستمعون إلى الزعماء الروحيين الجدد الذين يؤلبون الكلاب والعفاريت، ويحيون في الرأس الجملة القاتلة كما الحديث الصحيح سابقاً.

تلقى رئيس البلدية الأمر بمغادرة المكان دون المساس بشيء. قال له إسماعيل عيش بنبرة ثورية في طريقة أدائه لمهمته الجديدة على رأس البلدية:

"سنقتفي بصمات أصابعك إلى غاية المقصلة."

باشَر القائمون الجدد فوراً بتطهير المحيط: أعيد إدماج الموظفين الودودين؛ تمّ طرد مناصري السلطة

الذين كانوا على وشك الاستسلام؛ كما فُرض الحجاب واللحى على الجميع.

من تحت شجرة الدُلب التي تغطي الغابة، تأمّل داكتيلو القرية وهي تتحوّل إلى قلعة، وزهو الأمس يغدو عدوانية صارخة. يلد الكسل الفوضى. في المساء، عندما يذهب إلى المسجد للخشوع، لا تسرّ له أشياء الليل أسرارها اللطيفة.

13

كان زان القزم جاثماً على غصن شجرة، ملصقاً ذراعيه على جانبيه مثل جناحي كاسر. يَمْكث على هذه الحالة منذ ساعة، دون ارتعاش. في صغره، تعلّم زان الاحتماء بالأشجار لأن الأطفال تعوّدوا إطلاق كلابهم في أثره. رغم إعاقته كان يتسلّقها بأسرع مما تفعله القِرَدة. يبقى مختبئاً وسط الأغصان حتى يُرفع الحصار. ولكي يقاوم التعب والرعب، ينشغل زان بالتفكير في أشياء أخرى. هكذا أضحى يحلم أنه تحوّل إلى طائر. في البداية، كان الناس يمقتون مفاجأته في هذه الوضعية. يرجعون القهقرى ويتمتمون تعاويذ تُبعدهم عن النحس.

كان زان يتجاهلهم. يمكنهم وصفه بالغراب، رميه بالأحجار، لا شيء يؤثر فيه. مَع مرور الوقت، تحوّلت ألسنة الشؤم إلى سلك دروب أخرى، فلم يَعد أحد ينتبه إليه.

في مجرى الوادي حيث تخندقت جماعة مراد، كان ثول الذباب الصغير يطن بدون توقف. تسلل حنش متكاسل وسط الحصى، بصمت أشبه بخط على الجلد. في الأسفل، تتلهى أخمِرة، قوائمها الأمامية مقيّدة بحبل. من عمق الغابة، تتواصل صيحات الإخوة الملتحين وهم يتدربون على المصارعة اليابانية. يحلق صراخهم عَبر الريف، مثيراً من حين لآخر فزع أسراب العصافير.

انتبه إلياس إلى سيجارته التي تحترق بين أصابعه. تمتم قائلاً:

- لماذا يُحدثون كل هذا الضجيج؟ لقد استولوا على البلديات، وهم مقبلون على الفوز في المجلس الوطني، فلماذا كل هذه المناورات؟

انزلق زان فجأة عن غصنه وتمدّد قرب الحدّاد:

- هل تعتقد أنهم سيقبلونني في صفوفهم؟

- إذا كنت قادراً على خوض الحرب بسيف في يد وفي الأخرى مَقعَد، سيُجنّدونك فوراً.

- وما محل المقعد هنا؟

- كي تركب فَوْقه يا شقي. وإلا ماذا ستفعل لتُواجه عدوك بالسيف؟ فأنت لا تصل حتى إلى فُتحة السروال.

اشتعل زان مثل قشّة تبن وقال:

- أنا أتحدّث بجدّ.

اتكأ إلياس على مرفقه ليقابل القزم وجهاً لوجه:

- أأنت صادق في قولك؟ أتريد فعلاً الالتحاق بجماعة الملتحين؟

- ينبغي انتهاز الفرص في الوقت المناسب والانضمام إلى صف الرابحين. ثمّ، إنّهم ليسوا بالضرورة على خطأ. إننا أمّة لا تسير إلا والهراوة على الرأس. لا يوجد أفْضل من ركلة في المؤخرة لتهزّنا. الدليل أنه منذ أن استولوا على الحكم لسنا مجبرين على دفع رشوة إلى الموظفين أو التوسل إلى الممرضين. كل شيء يسير مثل الساعة. زيادة على هذا، إنهم يناضلون من أجل الإسلام، وأنا مسلم.

- أظُن أنك كنْتَ مُسلماً أيضاً حينما كنت تَسْلب وتنشل أموال وحلي عجائز المدينة الفقيرات.

- أتريدني أن أبقى طوال حياتي أرْتكب المعاصي؟

- إن هؤلاء لا علاقة لهم بالإسلام. قال لي داكتيلو إنّهم انْحرافيون. يستخدمون الدين كقميص عثمان.

حرّك زان أذنيه بفضول ظاهر:

- داكتيلو قال لك هذا الكلام؟

- قال لي أيضاً إنّهم يريدون إقرار الأصولية العالمية تحت سلطة الإيرانيين. ألم تسمع قط عن شيخ الجبل؟

- من هذا؟ مُوسى السكير؟

- حكى داكتيلو أنه في نهاية القرن الحادي عشر،

اعتكف مجنون إيراني في قلعة ألموت ليؤسّس فرقة الحشّاشين أو الأساسيين أي الأصوليين، على حسب التسميات والتأويلات. لقد زرع الموت والرعب في ربوع الأرض، هاجم أسْياداً كباراً في عقر معاقلهم. ثمّ انطفأ كل شيء. بعد ذلك بقرون، حينما انهارت الإمبراطورية العثمانية مثل قصر رملي، حاول الإيرانيون الاستيلاء على المكان الشاغر وإقامة خلافة للسيطرة على أمم المسلمين وثرواتهم كي يمنحوا لأنفسهم حياة رغدة.

قال زان محتجاً:

- كيف لداكتيلو أن يعرف كل هذا وهو لم يغادر القرية البتة؟

- لقد قرأ داكتيلو ركاماً من الكتب. ما عليك إلا الاستماع إليه كي تتشبع بالعلم الذي لم يكلف أحد نفسه البحث عنه في تلك القواميس. إنه ليس فاشلاً مثلك.

- أنا لست فاشلاً. إننا في بلد ديمقراطي وأتمتع بحقوقي الكاملة كمواطن، ولي حريتي في اختيار الجهة التي أريد الانتماء إليها.

- ومن يريد قزماً مثلك؟

قهقه زان. ثمّ طقطق بإصبع على جمجمته:

- صَحيح أنني قصير القامة، ولكن مخي كبير.

دار على عَقبيه وأسرع مبتعداً عبر الحقول.

في الشارع الرئيسي، عكف إسماعيل عيش على مراقبة فرقة عمال الطرق والجسور ترمّم الحفر في الإسفلت. تحت ظل شجرة، جلس عيسى عصمان مع بعض الشيوخ يمدح قدرات العربة الضاغطة. قال والد تاج إن الآلة أسرع من الإنسان، فوافق الآخرون بتحريك الرؤوس. سلك زان زقاقاً متسخاً كي يلتحق بمرأب تاج عصمان. كان الميكانيكي منشغلاً بتبديل صفائح الفرامل. قال دون أن يتوقف عن العمل:

- عندك مشكل؟

هزّ زان كتفيه وجلس القرفصاء قرب السيارة.

- خذني في فرقتك.

- أنت لا تعرف شيئاً في الميكانيك.

- أقصد الفرقة الأخرى. أنا الآن أصَلي وقد توقفت عن ارتكاب المعاصي. قبل أيام قليلة عثرت على محفظة نقود وأرجعتها إلى صاحبها دون أن أنظر إلى ما في داخلها. ماذا يجب عليّ أن أفعل فوق هذا كي تقبلوني في جماعتكم؟

- أنت معنا قبل اليوم.

- كيف ذلك؟

- أنتَ حارسنا الذي لا ينام.

لم يتحمّس زان. أبقى رأسه منخفضاً، ويديه على ركبتيه.

- أنا بحاجة إلى تمرينات. أنا بحاجة إلى حمل ساعد أبيض مكتوب بالأخضر في ذراعي وأتجوّل أمام الناس، أرفع الملصقات وأصيح بأعلى صوتي: "عليها نحيا وعليها نموت، الموت للكفار".

- للجدران آذان... توجد قهوة في الإبريق.

انتقل زان على طريقة البطة، ملأ فنجاناً وعاد، يجرّ ردفيه مع التراب. سَوى تاج الصفائح وتحرّك كي يُرجِع العجلة إلى مكانها. قال زان:

- داكتيلو يطلق لسانه أكثر من لسان حيّة رقطاء.

- كيف ذلك؟...

- يحكي أن مجنوناً استقر بالجبل كي يؤسس لجماعة القتلة وهم الأصوليون. أعتقد أنه يقصد الشيخ عباس. أَضاف أنّ الفُرس والإيرانيين يقفون خلف كل هذا كي يأتوا بشخص اسمه عثمان الشرير من مكّة وتنصيبه خليفة لأنه ثري، وهكذا يمكننا أن نعيش عيشة جميلة.

- ما هذه التُرّهات؟

- كان إلياس يستخدم كلمات بالفرنسية وصعب عليّ متابعته. ولكن الأكيد أن داكتيلو لا يحملنا في قلبه.

لولب تاج محازق العجلة، شدّها بقوة مستعيناً بالرافعة. ثمّ وقف، أخرج أوراقاً نقدية من جيبه وأعطى ورقتين لزان.

- خذ هذه الدنانير ورفِّه عن نفسك.

أخْفى زان الورقتين بحركة ساحر، ولكنه لم يتحرّك من مكانه.

- ماذا تريد أيضاً؟

ابتلع زان ريقه وتنفس بقوة وسأل:

- مجرّد تفْصيل بسيط فقط، هل بسبب قامتي القصيرة؟

- تكفينا عيناك وأذناك. انصرف الآن ودعني أكمل عملي.

انتهى جعفر إلى الاقتناع بأن وضعيته الجديدة تستحق قليلاً من التفكير. افترق أصدقاؤه، كل واحد باتجاه محدّد. يصرّ علال سيدهم دوماً على الالتحاق بزوجته مبكراً. وداكتيلو لم يعد يتحمل حضوره المزعج. أصبح المقهى شبيهاً بقبو كئيب، والقرية بثكنة. أما الإخوة فإنهم يقضون وقتهم في التدرّب على كيفية الهيمنة المطلقة على حياة الناس؛ إنهم في كل مكان يخيفون ويهدّدون. لم يعد جعفر يجد ما يحلو له. يتلقى تغيّر الذهنيات مثل حمل عصبي. أثناء الليل، يقسم بأغلظ الأيمان أنه سيغادر القرية عند أول ضياء الفجر؛ أثناء النهار، يدرك أنه لا يملك الشجاعة ولا القوة للمغامرة أبعد من مولاي نعيم. هكذا، مع كرّ الأيام المملة، تمزّق عناده مثل القيد المتعفن، ليجده أبوه

حينما توقف عن نقش الأرض واقفاً وسط الحقل، قبعة على الرأس وفأس في قبضة اليد.

- ماذا تريد؟

- مثلما ترى، جئت أساعدكم على خدمة الأرض.

ردّ الأب قبل أن يستأنف عَمله:

- لا نخدم الأرض بالفأس بل بالقلب.

أصيب جعفر بخيبة أمل قاسية. كان يتوقع استقبالاً أكثر حرارة.

- كنتَ تعبس في وجهي لأنّني لا أقوم بأي عمل. الآن، وقد تعقّلت وأدركت أين توجد مصلحتي، تسخر من مبادرتي.

التفت الأب بغتة وعلامة الغضب ترتسم على قسمات وجهه:

- كان جدّك رحمه الله يُكن لهذه الأرض حباً قوياً. كان يَعشق كل سنبلة، ويقضي معظم وقته في مراقبة قمحه، شبراً شبراً، إلى أن يصل إلى مستوى الخصر. في الثمانين من عمره، كان يدفع بالمحراث بقوة ثورين. ولم يفكر في رهنها رغم سنوات الجفاف والمسغبة. حينما كان يتجول وسَط الحقول ويضم بذراعيه العشب، يشعر كما لو أنه يحتضن العالم بأسره. أنا أيضاً كُنتُ أنزعج حينما يُخرجني من غرفتي الزوجية في ساعات مستحيلة. ولكنني فَهمْت قصده. وبعدما سلبت الثورة الزراعية جزءاً كبيراً من أراضينا،

ودمّرت الجرّارات الاشتراكية أشجار اللوز، كان جدّك واقفاً قرب البئر هناك، فجأة أحسّ بوجع في القلب وسقط ميتاً... وأنتَ، بهذه السهولة، ولأن أصدقاءك تخلوا عنك، تحمل فأساً وتأتي متصوراً ببلادة أنه يكفيك حفر الأرض كي تستحقها... عد من حيث أتيت، يا جعفر الكسول. فكّر على مهلك، قلّب حفنة تراب بين أصابعك. في اليوم الذي ستحسّ بخفقانها في راحة يدك، حينما تحسّ فعلاً أنها تمنحك شيئاً من حيويتها ونُسغها، حينذاك التحق بنا وسنفتح لك أذرعنا.

في ذلك المساء، مكث جعفر صلباً، لا يشعر بأية شفقة، حتى ولو أدمى الأفق من جميع الجهات. بقي في الحقل مدة طويلة بعد ذهاب أبيه وإخوته، متكئاً على فأسه، ثمّ جالساً وسط حرث، الرأس بين الركبتين، ولم يتمكن المارّون عن بعد من التمييز بينه وبين الفزّاعات المغروسة حوله.

14

قطّب داكتيلو حاجبَيه. إنها المرّة الثانية التي تَصعد فيها شاحنات البلدية الثلاث باتجاه الجهة الأخرى من الهضبة. في الصباح كانت معبأة بالحصى والرمل، وها هي في المساء تجرّ أطناناً من أكياس الإسمنت ولفائف الحديد. خلف التلّة، يوجد خزان الماء ولكن مصالح البلدية قامت بترميمه منذ فترة وجيزة. حكّ داكتيلو رأسه ليفكر في ما يمكن أن يجنّد مثل هذه الوسائل الضخمة.

التفت زبونه، رجل قصير القامة بلحية عفريت السوء، نحو الموكب.

- إنهم يشيّدون سدّاً للسقي، قال الزبون شارحاً، آملاً أن يراه يستأنف كتابة الرسالة التي كان يمليها عليه.

حمحم داكتيلو بصوت مسموع، دقّ على ملامس آلته الكاتبة، صحّح خطأ ثم واصل كتابة الجملة إلى نهاية السطر. مدّ الزبون عنقه، مندهشاً من الحروف

اللاتينية التي تنطبع على الورق بطريقة سحرية. تناثرت عمامته على الملامس. دون عصبية، انتظر داكتيلو بصبر أن ينسحب الزبون من فوق الآلة كي يواصل إنهاء عمله.

- إذاً تنوي بيع منزل خالتك؟...

مكث الزبون مذهولاً لحظة كما لو أن الكاتب العمومي وضع تواً إصبعه على السرّ، ثمّ وافق بحركة من الرأس:

- قل له إن الخالة زهرة قرّرت من تلقاء نفسها التخلّص من كوخها. ستعيش في منزلي وسط أولادي. ستأكل حدّ التخمة وسوف لن ينقصها شيء. ألا يقال بأننا لا نتعرّف على حقيقة ذوينا إلا في الأوقات الصعبة؟

طقطقت الآلة على ثلاثة أسطر وتوقّفت.

- نعم؟...

- ماذا؟ هل شرحت له؟

- طبعاً.

- إنك تُسْرع كثيراً يا هذا. انظر جيداً، ربّما نسيت أمراً مهماً.

استجمع داكتيلو رزانته وأعاد قراءة الأسطر الثلاثة الأخيرة بصوت مسموع. صرخ الزبون:

- أرأيت؟ لقد نسيت التأكيد على كلمة "التخلّص" ت-خ-ل-ص.

عاد داكتيلو إلى الرسالة وأدخل ملاحظة زبونه، منزعجاً قليلاً، رغماً عنه، من إمكانية المشاركة في عملية مريبة. ولكن هذه الأشياء من صلب المهنة. يَعْرف كُتّاباً عُموميين يفتحون آذانهم جيداً ويسجلون كل صغيرة وكبيرة ويحتفظون بها في أرشيفهم الخاص كي يبتزوا زبائنهم في أيامهم الصعبة. أخرج الورقة من الآلة، طواها إلى أربع، وضعها داخل ظرف وأعطى الكل للزبون.

- ثلاثون ديناراً.

احتج الزبون قبل أن يدفع، ثمّ ابتعد مقسماً أنه سيلجأ لاحقاً إلى كاتب آخر أقل شراهة.

أوقف إسماعيل عيش سيارته الوظيفية قرب المقهى. كان أطفاله الخمسة الصغار يتشاجرون في المقعد الخلفي. أمرهم بالتزام الهدوء، صفق الباب وسوى حزامه تحت القميص محرّكاً مؤخرته. نظر شزراً أولاً نحو مجموعة شيوخ منعزلين تحت سقيفة ثم راح يتهدد ويتوعد القرويين الجالسين في الشرفة حيث سارع بعضهم إلى الاعتدال والاستعداد للتحية. مِن خلف المصرف، بادر عمّار إلى نشر ابتسامة وقائية، أخرج فنجاناً لائقاً من عمق الأواني المبللة، جففه بمنديله ووضعه جانباً تحسباً لأي طارئ.

اكتسب إسماعيل كثيراً من النفوذ منذ توليه رئاسة البلدية. لم يعد ذلك السوقي بضحكته المثيرة للسخرية

والذي يحتقره الناس. تعلّم المشي بخطى محسوبة، ولم يعد يبتسم إلا بالتقطير كما منع الإلفة الزائدة. صَحيح أن لحيته لا تزال منفّرة، ومع ذلك يواصل صيانة طبائعه السوقية القروية كي يكون في مستوى منصبه الجديد. يوقف الناس في الشارع، يسألهم عن أحوالهم، يسجل طلباتهم في كناش صغير. وهذه الطريقة، لم يستخدمها أيّ رئيس سابق للبلدية. كم يحب ترديد مقولة: "المسؤولية تكليفٌ وليست تشريفٌ".

قال لقروي جالس عند مدخل المقهى:

- علمت أن الله رزقك مولوداً جديداً.

ردّ الرجل بنبرة شاكية.

- طفلة...

- إنها السادسة؟

- إنها التاسعة، سيّدي الرئيس... تسع بنات.

- ماذا أقول لك يا أخي؟ أمران لا ثالث لهما: بدّل أرنبتك أو غيّر أضلعك .

انفجرت قهقهات تُنوِّه بجرأة رئيس البلدية، رغم سحنة القروي الكئيبة.

مدّ إسماعيل يده لشخصَين من معارفه القدامى، ثمّ اقترب من شيخ خائف:

- من المفروض أن تكون غاطاً في النوم يا الشيخ قْويدَر. وإلا كيف ستؤدي وظيفة الحراسة ليلاً؟

لم ينتظر الشيخ تنبيهات أخرى. أخذ عصاه واختفى. فضّل آخران الانسحاب على رؤوس الأصابع قبل أن يدينهما غيابهما عن العمل.

- إيه، سي رابح، ظننتك في سيدي بلعباس.

- انتظر الحافلة. لها ثلاث ساعات من التأخّر.

خربش إسماعيل حروفاً على كناشه.

- سأحلّ مسألة النقل بشكل نهائي. سأوفر لكم ثلاث رحلات في اليوم.

انطلقت ضوضاء الفرح والامتنان لتُحَيِّي وَعْد رئيس البلدية الذي تلذّذها إلى آخر ارْتِعاشات الأصوات.

وقَف في آخر الشارع يتأمل فستان الإسفلت الجديد، والمصابيح الجميلة، ومقر البلدية المدهون بألوان ساطعة والخطوط الخضراء على الواجهة، ثمّ، غير بعيد من المدخل، الشاحنات الثلاث الراجعة تواً من الورشة. ضرب قبضة يد على أخرى علامة الافتخار، ولكن قسمات وجهه تشنّجت حينما وقع بصره على داكتيلو.

- كيف الأحوال أيها الكاتب؟

- على حَسب ما تسير به الأحوال الأخرى.

ردّ إسماعيل بنبرة مريبة:

- الأحوال على أحسن ما يُرام.

- هذا أفضل لنا ولكم.

كان إسماعيل محترساً. يَعْرف أن محدّثه يستعمل

لغة غامضة ومُلتوية، ويخاف أن يتحوّل إلى مسخرة من جراء جملة حاذقة.

- الحديث معك يُخفي دائماً أسماكاً تحت الأحجار.

- لا يوجد الماء في الوادي يا إسماعيل.

- لا أتذكر بأننا قمنا برعي البقر معاً... أنت بالذات لا نعرف ماذا تُخفي داخل رأسك.

- يداي فقط.

- يُحكى أنّك لا تشمّنا.

- من هذا الذي يَحكي.

- إن عيوننا عليك، اِحذَر.

ابتعد إسماعيل بعض الخطوات، ثمّ دار على عقبيه:

- آه، تذكّرت، ما هو اسمك الحقيقي يا داكتيلو؟ مع طول الأيام والسنوات، أَضحى في الأمر إنّ. ألا تكون قد شاركت في دسائس مريبة كي تخفي اسمك طوال هذه الفترة؟ أم أنه يحمل دلالات بذيئة.

كانت النبرة رتيبة، ولكنها مُصوّبة بدقة، مليئة بالإيحاءات. فجأة، شعر داكتيلو بأن أحشاءه تتلوى.

للمرّة الثالثة، تلتهم شاحنات البلدية طريق الهضبة المغبّرة. انتابت داكتيلو حيرة كبرى، فقرر جمع أدوات

عمله والذهاب إلى المكان عينه ليتأكّد بنفسه مما يحدث.

انتشرت ورشة ضخمة حول آثار المعبد القديم. يتحرّك عشرات المتطوعين تحت القيظ، وسط العربات المُهترئة. يقلعون البلاطات التليدة، يحفرون سواقي في قلب المعبد، يخرّبون الموقع التاريخي بوحشية لا نظير لها. طفق داكتيلو يركض من عامل إلى آخر يتوسّل إليهم كي يوقفوا الخراب. وصل إلى تاج عصمان الذي كان يقود الأعمال من فوق أكمة ترابية.

- يجب توقيف هذا النبش فوراً.

تجاهله تاج الذي واصل صُراخه باتجاه العمال الكسالى. أمسكه داكتيلو بفظاظة من الكتفين.

- إنني أحدّثك.

حدّق تاج بازدراء في اليد الوقحة، فدفعه بحركة احتقار:

- في المرة المقبلة، سأقطع هذه اليد وأدسّها في فمك العريض.

- إنكم تخربون المعبد.

- أي مَعْبد تقصد؟ هذه الآثار العفنة؟ سنبني مسجداً عظيماً في هذا المكان. انظر إلى المنظر الجميل الممتد على السهل... أنت تزعجنا، إنّنا مشغلون.

أدرك داكتيلو أنه لا يجب أن يأمل شيئاً من هذا

الجانب. فبدأ يركض كالمجنون باتجاه مزرعة اكْسافْيي.
أوقفته ميلشيات الشيخ عند المدخل:

- أريد رؤية عباس.

- إنه منشغل بالعبادة.

- المسألة في غاية الخطورة.

تفرّس بوجمعة، أخو مراد، في الكاتب العمومي.

- طيّب، سأرى ما يمكن أن أفْعَله.

عاد بعد دقائق معدودة.

- ما نوع المسألة الخطيرة التي تريد أن تقابل الشيخ بسببها؟

- المَعبد العتيق. إنهم يُخرِّبونه.

- آه، هذا هو الموضوع الخطير.

انتظر داكتيلو ساعة كاملة قبل أن يقاد بقرب عبّاس.

- إني في الاستماع.

- يا شيخ، يجب إيقاف تدمير المعبد.

- لماذا؟

- كيف لماذا؟ يتعلق الأمر بموقع تاريخي، بِمَعْلم تراثي...

- وما هو تاريخه؟

- لا أعرف. إنها آثار قديمة جداً، تعود إلى آلاف السنين. لقد صمدت في وجه الحروب والكوارث الطبيعية. فمن واجب الجميع الحفاظ عليها. إنها معالم لا تقدّر بثمن. تحمل جزءاً من تاريخنا.

- إنها موجودة هنا قبلنا. إذاً هي ليست لنا ولا هي من تاريخنا.

- إنها جزء من التاريخ.

- خُرافات... قال الشيخ بغضب. إن التاريخ الحق يبدأ مع مجيء الإسلام.

- هناك أدْيان وُجدت قبلنا، وأنبياء. وقد خصّت لهم الكتب السماوية الأخرى صفحات غير يسيرة.

- أمنعك من خلط الكتاب العزيز بريق السكر الذي يفوح منك.

عاد الشيخ إلى قراءاته. انتهت المقابلة. أمْسك بوجَمْعة الكاتب العمومي من الذراع ودفعه إلى الخارج.

15

قال علال سيدهم:

- ارتحت عندما عرفت أنك التحقت بعمل أبيك.

لم يكن جعفر يستمع إليه. تأمّل الصالون، فلم يعثر على الجدران الشقية السابقة، ولا الستائر الرثة، ولا البؤس الذي يفوح من منزل صديقه. الجدران منشرحة بالورق المدهون، والأرضية مغطاة بالزرابي، كما توجد ستائر جميلة على النوافذ. يضيء حُوَيض غاص بالأسماك الصغيرة زاوية فيما كان غواص رصاصي يحرس صندوقاً ينفتح وينغلق على فقاعات هوائية لا متناهية. قال صارخاً:

- قل لي يا عزيزي، إنّها لحياة القصور...

- ومع ذلك لا يتطلب الأمر الشيء الكثير.

أجال جعفر نظراته على الأشياء الجميلة التي أتَت بها سارة. على الجدار المقابل، صُورة زوج أخذت صبيحة ليلة الدُخلة: كانت سارة رائعة في فستان

العروس، اليد في قفاز إلى غاية المرفق. تحمل باقة ورد ورقية. يبتسم علال كما لو أنه لا يصدق ما يعيشه من سعادة. ربطة العنق معوجة ولكن بذلته لا غبار عليها.

- سعيد أنت؟

ردّ علال والاحمرار يكسو وجنتيه:

- الحمد لله على هذه النعمة.

كان جعفر يشعر بالغيرة والتأثر معاً.

- أنت إنسان خيّر يا علال. أنا مسرور لوضعك الجديد.

- شكراً.

- متى ستقدّمني إلى زوجتك؟

- أنت أذرى بأن هذا لا يليق.

- لا تلعبها عليّ. أُريد أن أراها عن قُرب.

- سوف ترفض الخروج إليك. إنها محتشمة.

- لقد كانت في الثانوية، أليس كذلك؟ تعرف ما معنى هذا.

تنازل علال. ذهب ليحضر زوجته. استمع إليه جعفر يتوسل إليها ضاحكاً، ومع ذلك رفضت متابعته وقالت بتدلل: "أنت مجنون؟ هذا لا يليق..." أخيراً، انفتح الباب وظهرت سارة كالفجر. ارتبك جعفر. الآن وهي تقف أمامه، تلعثم وشَعر بالخجل هو أيضاً. قال علال وهو يمسك ذراع زوجته كي يمنعها من التملص:

- إنه صديقي جعفر؛ صَديق يصعب عليّ فراقه.

مدّ جعفر يده، سحبها بخفة. جفّ حلقه، سمع صوته يتلعثم:

- هل يعاملك جيداً هذا الشقي؟

أفلتت ضحكة من سارة. بالنسبة لجعفر، كأنها خرير مياه تغني في الحقول. قال علال بلطف وهو يحرّر زوجته:

- أترى، إنّك تخجلها.

انسحبت سارة مثل النور في الضباب.

- ها قد رأيتها الآن.

- ليس كثيراً...

- اجلس أيها السفيه واحكِ لي ماذا تفعل في عملك الفلاحي الجديد.

بقي جعفر يحدّق في المكان الذي وَقفت فيه سارة قبل دقائق.

- هل تسْمَعني يا هذا؟

- إلهي كم هي جميلة. ألا تريد أن تعطيني إياها مقابل عَيْني؟ أنا مجبر على الحفاظ على عين أخرى كي أتأمل جمالها.

- يكفي. ستجلب لنا النحس.

تعقّل جعفر وجلس:

- طيب، كيف هي الحقول؟

- لم يكن الأمر بسيطاً في البداية، ولكنني بدأت

التعوّد. تركني أبي أتخبّط وحدي مدّة أسبوعين قبل أن يأخذني في فرقته. المُهم أنني لم أعد أعرف الأرق في الليل... وأنت أيها الشرطي؟

- إن الأصوليين نغّصوا علينا حياتنا.

- أنا على علم بالأمر. الوضعية تتعفّن شيئاً فشيئاً. أنا متشائم. ماذا يريدون بالضبط؟ البلديات تحت عباءاتهم...

رفع علال الكأس إلى شفتيه، ثمّ وضعها ليقول:

- يقال إن الجبهة الإسلامية للإنقاذ أمرت بالعصيان المدني.

- ماذا سيفعلون هذه المرة؟

- لا أعْرف التفاصيل ولكن الأكيد أنه ليس خيراً.

- الوضع سيّئ إلى هذا الحدّ؟

- إنها الكارثة في العاصمة. قوات مكافحة الشغب في حالة استنفار قصوى. مواجهات يومية لتفريق المتظاهرين بالقنابل المسيلة للدموع. البارود الذي تؤجّجه النار، سينفجر من حين لآخر.

- كفى، إنّك تُخيفني.

- تصوّر أنني خائف أيضاً. إن القرميدة الأولى التي ستسقط ستقع حتماً على قبعتي. إن الأصوليين يُعِدّون لتحضير جيش مواز. ما عليك إلا أن تراهم يستعرضون صدورهم في الشوارع. وتحدث أشياء مريبة في الغابات

والأحراش. لقد سُرقت كمية كبيرة من المتفجرات من مِخجرة سيدي سعيد.

- ربما تعلق الأمر بحركة تدميرية.

هزّ علال رأسه أن لا.

- في الأسبوع الماضي، تمّ حرق امرأة وابنها حيّين داخل كوخهما. اتُّهمت الأم بالزنى. اعتداءات مماثلة تحدث يومياً هنا وهناك. بَعْد صلاة الجمعة، يتعمّد حشد الأصوليين المرور عبر الشوارع التي تحوي مقرات الشرطة كي يطلقوا شعار "لا ديمقراطية ولا دستور، القرآن والسنة".

سكت علال بغتة ثم وقف. في الخارج، ارتفع صراخ متبوعاً بضوضاء. خرج الناس إلى ساحات منازلهم، وبعد ذلك إلى الشارع.

كانت غاشيمات في فوضى عارمة. سقط الخبر على المسجد مثل قنبلة. تضخم حشد المُلتحين، زاحفاً، جارفاً. تسلق تاج عصمان أعلى المئذنة، قسمات وجهه متشنجة، وقال:

- أيها الإخوة، لقد أوقفت السلطة الكافرة شيوخنا. أعضاء المجلس كلهم في السجن. ومعهم الشيخ عبّاس أيضاً.

16

إن جلول المجنون هو أوّل من رآه. كان يتمرّغ في كومة من الحشائش ويراقب النمل حينما توقفت سيارة التاكسي قرب الجسر. اشرأب رأس جلول. سال ريقه على ذقنه، ليتدلى على صدره في قطرات مطاطية. دفع الرجل أجرة السفر إلى السائق، ثمّ جال ببصره على الجبل والهضبة والسهل. كان يبدو متسرِّعاً لغزوها. ألقى بجرابه البحري على الكتف ومشى بفخر باتجاه القرية.

لم يتعرف عليه جلول بسرعة بسبب لباسه الغريب: يعتمر شاشاً عليه قبعة كاكية اللون، سترة تنزل إلى الركبتين، وتحتها عباءة شرقية، وفي الأسفل، ينفلت جوربان خشنان من حذاءين يتأرجحان بين النوع العسكري والعمالي. التفت الرجل نحو المجنون وابتسم له. حينذاك فقط، أدرك جلول هوية القادم الغريب:

- واه، واه، قادة... قادة...

كان يمكن للسائق أن يُنزل قادة هلال أمام منزله.

وإن تعمّد هذا الأخير توقيف التاكسي على مستوى الجسر، فلكي يظهر للصغار والكبار أنه عاد من أفغانستان بلا أدنى جرح ولكن الرأس لا يزال يطنّ بصخب الرصاص.

أوقف الحاج بارودي وضوءه ومكث لحظة طويلة قبل أن يضع اسماً على الوجه الملفوح الذي ينظر إليه. دفع إناء الماء جانباً وقال:

- لقد عادَ ابن هلال.

انتشر الخبر عَبر بيوت القرية وأزقتها في لمح البصر. بدأ الأطفال يتجمعون خلف العائد، أفراداً وزرافات. استيقظ الشيوخ الغافون في ظلال الجدران وحرّكوا أجسادهم الواهنة كي يتثبتوا من صحة النبأ. قفز زان القزم من أعلى مخبئه، أطلق صيحة وركض يبحث عن فجوة بين ساقي قادة، مُفسداً هكذا بحماقته الهيبة العسكرية لذاك الذي رفعه الشيخ عبّاس قبل سنة إلى مصفّ الشهداء.

- ها قد عاد البطل.

خرج تاج عصمان من مَرْأبه، يستخبر عن سبب الضوضاء. أخرسته رؤية حليفه. بسرعة البرق، غسل يديه في حوض إسمنتي وركض يلتحق بالحشد.

- الحمد لله أنك عدت حيّاً.

تعانق الصديقان في التحام مؤثر.

تدافع المستقبلون وأصبح من الصعب إيجاد فسحة

للاقتراب من قادة. وزّع المريدون ضربات بالمرافق كي يفسحوا طريقاً يوصلهم إلى مجاهد الشرق. تضاعفت الحماسة والهيجان. انطلقت أناشيد دينية، تكاثرت وزحفت عبر الأزقة. بدوره، وصل إسماعيل عيش الذي فقد سلطته، منذ أن أزيح من منصبه بعد حلّ الجبهة، يتمايل ببطنه المنتفخ. تَسلّق زان جداراً، ثمّ ضمّ يديه إلى فمه وطفق يقوم بدور المؤذن. احتل الموكب الساحة العمومية، ثمّ فناء البلدية، مما أجبر داكتيلو على جمع أدوات عمله بخفة. صرخ تاج قائلاً:

- كفى... ستخنقونه...

استأنف الإخوان الملتحون الضرب لتفريق المُتدافعين. في لحظة، فقدَ العائد اتزانه ونزلت قبضة يده على مراهق. في حقيقة الأمر، لقد انكسر بصره على منزل سارة.

خيّم الهدوء عند الاقتراب من مَسكن هلال. رفع قادة ذراعه ليطلب الصمت. لا يزال المتأخرون يواصلون الصياح. التفت المتقدمون باتجاههم ليدعوهم إلى السكوت. ثمّ، من صف إلى صف، خفتت الأصوات حتى صراخ الأطفال.

قال قادة وهو يمسح دمعة:

- أيها الإخوة، أشكركم على حفاوة استقبالكم. إنها أجمل هدية في حياتي. إن الله سيعوّضكم مثلها في الجنّة.

هاج الحشد وتعالى الصراخ. هيمن صوت على الجميع ليصرخ للمجاهد أنه المهدي المنتظر. شكره قادة بتواضع والتحق بمنزله. من جديد، تعالت الأناشيد نحو السماء، خاشعة كما الصلاة، صلبة كما القَسَم.

طوال أسبوع كامل، مكث قادة غارقاً بين الكتب، لا يسمح لا بالنظرات المبالغة لأمه ولا بفضول أخواته. أثناء الليل، يخرج إلى الحديقة يُناجي نفسه. في الصباح، يعود إلى الشرفة كي يقرأ أو يكتب الخطوط العريضة لبيان. وفي هذه الفترة، لا يحق لأحد الظهور في الضواحي. عند الظهيرة، يستقبل أصحابه. يتبادلون أطراف الحديث تحت ظل القصب، حول إبريق شاي. حينذاك يحكي لهم معاركه والكمائن التي نصبها والخسائر الكبرى التي أحدثها في صفوف العدو والترسانة السوفياتية الهشّة أمام إيمان المقاومين المسلمين. ينتظر الأخوة بصبر توقفه عن الكلام لاسترجاع أنفاسه كي يحكوا له عن مكر السلطة، وكيف أوقفت الانتخابات في دورها الأول في وقت حصدت الجبهة الإسلامية للإنقاذ أغلبية الأصوات، ثمّ سجنت الشيوخ وقادة الحركة، وهجّرت المناضلين إلى محتشدات في الصحراء وتركتهم عُرضة لقسوة المناخ وشراسة الجلادين. قال بوجمعة مستنكراً:

- يهجم علينا رجال الدرك في ساعات لا أراك الله، يحشروننا داخل الشاحنات كقطعان الغنم

ويسفِّروننا باتجاه رقان وعين امْقَل آملين أن تصرعنا الشمس اللاهبة.

قال تاج عصمان:

- لقد فزنا بأغلبية المقاعد في المجلس الشعبي الوطني. ولكن السلطة ركّبت قضية الاعتداء على ثكنة قمار كي تشوّه صورتنا لدى الرأي العام، ولم تفلح خطتها. فأوقفت جَميع أعضاء المجلس كي تزعزعنا. ولكن الشعب تفطّن للعبة القذرة... باشر إخواننا الجهاد في العاصمة وضواحيها. يومياً، يسقط رجال الشرطة والكفار والخونة تحت رصاصاتنا.

ردّ قادة مُعْتداً بنفسه:

- أعرف... أعرف... لقد وصلت إلينا أصداء الحرب هنا إلى أقصى جبال لاشكارغاه.

وجد تاج صعوبة للتحكم في نفسه. خيّب قادة أمله. يحدثونه عن البليدة، يسرع في ذكر شاخشاران. يعددون له الاعتداءات التي نفّذت في بوفاريك، يردّ بسرد أفعاله البطولية في هندو كوش . لم يفهم بعد أن الإخوة جاؤوا إليه كي يقدموا له البيعة ويضعوه وجهاً لوجه أمام مسؤولياته. بما أن الشيخ عباس غائب، فتعود إليه، قادة هلال، المجاهد الشجاع لمضيق صلانغ، مبادرة إعلان الجهاد في المنطقة.

قضى تاج عصمان شهراً كاملاً كي يجعله يعي وضعيته الجديدة.

17

لم يتمكن الإمام الحاج صالح من إغماض عينيه. كان مُمدّداً على جانبه، ويداه مضمومتين تحت خدّه. يسترق السمع إلى طقطقات النوافذ المُهترئة التي تهزّها الريح المصفرة. في الخارج، يسقط المطر بلا فائدة على الهضبة التي يشقّها البرق الساطع من حين لآخر. أحياناً، تنزل الصاعقة قريباً من البيت، فتضيء الغرفة بضوء باهر، يمنح للظلال هيئات بشعة. سألته زوجته الهرمة:

- لماذا لا تنام؟

- بِسَبب الرعد.

لمْ يَعد الحاج صالح يعرف لذّة النوم منذ أن عادت إليه وظيفته كإمام. وجد المسجد منكوباً. مِن الصعب أن يُحوّل حقل مصارعة إلى قاعة للصلاة، حتى وإن كانت في الأصل معدّة للخشوع. يبقى المكان هشاً حتى بعد طرد العفاريت. إنّ المُصَلين القليلين الذين ينضمون إليه

لا ينتبهون جيداً إلى قراءاته وخطبه. يأتون إلى المسجد هروباً من القيظ والفراغ. أما جماعة الشبان الذين يرافقونهم، فإنّهم يُظهِرون عداوتهم صراحة لكل من ليس أصولياً. تنقصهم فظاظة الخطب ويحنّون إلى ضوضاء الاحتجاج. هكذا، حينما يؤذّن الحاج صالح، ينزعجون من صوته وأكثرهم لا يأتي إلا جمعة واحدة في الشهر.

تفاقم الوضع. منذ فترة قصيرة، قام رجال مقنعون بتجريد القرويين من أسلحتهم، كما تعرّض المسافرون إلى اعتداءات في الطريق، ولم يعد أحد يتنقل ليلاً وإن كان لإسعاف مريض. عرفت العائلات شجارات عنيفة بين أعضائها. غرق الحاج بودالي نهائياً في الجنون. مما أدى إلى حبسه داخل مصحة اسْتشفائية.

كان الحاج صالح قلقاً وناقماً على نفسه. لم يفهم لماذا، ولكنه حينما يعتلي المنبر، يغادره استنكاره وتلتصق الكلمات بطرف لسانه. قالت زوجته العجوز:

- أسمع طرقاً على الباب.

وصل الصوت إلى أذني الإمام. دفع الغطاء وبحث عن نعليه تحت السرير. قال مطمئناً:

- هذا لا يكون إلا دحّو. كلما كان الليل عاصفاً ماطراً أيقظ القرية بأسرها.

رأت المرأة زوجها يرتدي عباءته ويغطي رأسه بمنشفة ويخرج إلى الفناء.

قال قادة:

- نعتذر لك عن الطريقة غير اللائقة التي خطفناك بها.

ردّ الإمام بمرارة:

- بما أن الأمر يتعلق باختطاف...

لم يعرف كم ساعات قضاها ممدداً على وجهه، في أقصى مؤخرة الشاحنة، ولا كيف تمكن من المشي داخل الغابة، اليدان مقيدتان والعينان معصوبتان، ليصل إلى هذا الكوخ الذي يجتمع فيه مدبِّرو اختطافه، أربعة رجال يحدّقون بوجهه بسحنة صارمة. كان قادة هلال يجلس على مخدّة، وجهه مغلق. إلى جانبه، يداعب تاج عصمان بحركة آلية شفرة سكين. فيما اتكأ إسماعيل عيش على الجدار، أصابعه متشابكة على بطنه. أمّا رابعهم فإنه شاب نحيف شاحب، لا يكاد يظهر داخل سترته العسكرية الواسعة. على رأس ذقنه حاشية لحية خفيفة وفي حدقتي عينيه سمّ. إنه يوسف ابن الحاج بودالي.

- اجلس على المقعد.

فضّل الإمام الاستلقاء على حصير من السَوْخر.

- كان عليكم أن تطلبوا مِني مرافقتكم، وكنت سأفعل. ولا تكون زوجتي قلقة في هذه اللحظة. إنها مصابة بمرض السكري.

قال قادة واعداً:

- ستعود إليها قبل الفجر.

قال تاج ونفاد الصبر يعلو مُحيّاه:

- قل له لماذا يوجد هنا.

هدّأه قادة بحركة يد متكبرة. ثمّ وجّه كلامه إلى الإمام:

- يا الحاج صالح، أنت رجل خيّر. لهذا لجأنا إليك. صَحيح أننا كنا غلاظاً مع شيوخ القرية نوعاً ما. ولكن ليس من باب الوقاحة. العالم يتغيّر وهم يرفضون قبوله... منذ الاستقلال، لم يتوقف بلدنا عن التقهقر. إن ثرواتنا الباطنية أفقرت قناعاتنا ومبادراتنا. تلاعب بنا الخَوَنة وأوهمونا أن الهراوات قد تحوّلت إلى عيدان مرجان. درّبونا على العنتريات الفارغة والديماغوجية. طوال ثلاثين سنة وهم يطوفون بنا بلا فائدة. النتيجة: البلد منكوب والشبيبة هرمة والآمال مسلوبة. في كل ربوع هذا الوطن، يتضاعف الانسحاب واللامبالاة. بل أخطر من هذا: فبعد أن فقدنا هويتنا، ها نحن نفقد روحنا.

سكت قادة. كان الشيخ عباس يصمت هكذا فجأة، ليؤجّج الانتباه.

- ونحن اليوم نقول: كفى.

هزّ إسماعيل عيش رأسه:

- كفى.

- هكذا ولدت الحركة. الله سبحانه وتعالى هو الذي ألهم الجبهة. لقد أشفق على هذه الأمّة التائهة التي يهدّد جمع من الحثالة بمحوها من الخريطة بخيانة الثقة والتعسف في استخدام السلطة والمحاباة والرشوة الحقيرة وعدم الكفاءة الفاضحة والانحراف. كُنا نملك أجمل بلد في العالم، فحوّلوه إلى زريبة خنازير. كنا نملك شرعية تاريخية، حوّلوها إلى سجّل تجاري. لقد لغّموا جَميع آفاقنا... لهذا نقول لهم "كفى".

كرّر إسماعيل بهيئة منهمكة:

- كفى.

- نحن مناضلي الجبهة الإسلامية للإنقاذ تصرفنا تصرّفاً لائقاً. اشتغلنا وأثبتنا قدراتنا. لقد انْضَم الشعب إلى مبادئنا وإيديولوجيتنا. ولكن السلطة البيروقراطية الحقيرة رفضت الاعتراف بالحقيقة. وقد اختارت عمداً اللعب بالنار. لهذا نردّ الصاع صاعين ونقترح عليها جَهنم تحرقها حرقاً.

رفع الحاج صالح رأسه على الصمت الذي خيّم فجأة داخل الكوخ. جرح تاج إصبعه باحتكاك غير إرادي مع الشفرة الحادة. ليوسف الآن جمرتان تحت الجبين. وحده إسماعيل يواصل تحريك رأسه. قال قادة:

- إنها الحرب بيننا.

كرّر إسماعيل:

- إنها الحرب بيننا.

كان الحاج صالح مُتعَباً، يراوده النعاس، زيادة إلى الأوجاع التي يشعر بها في مفاصله.

- ماذا تنتظر مني تحديداً، يا ابن هلال؟

- فتوى.

- لا أملك العلم المطلوب لإصدار الفتاوى. أنت تَعْرف بأنني لست إلا مُقرئ قرآن وإمام قرية صغيرة وذاكرتي أصبحت لا تسعفني حتى على تلاوة آيات الصلاة.

تدخّل تاج منزعجاً من فصاحة قادة المتحمسة الغامضة:

- أنتَ إمام القرية منذ أربعين سنة. أنت رجل عادل ومستنير. نُريد منك أن تعلن الجهاد.

- الجهاد ضد من؟

- ضد كل الذين يَحملون القبعة: الدرك، الشرطة، العساكر...

- وحتى سُعاة البريد، قال إسماعيل ساخراً، بنية تكسير الهيبة التي قضى قادة وقتاً طويلاً لتحضيرها كي يبهر الإمام.

مَكثَ الحاج صالح صامتاً مدّة دقائق، منهاراً، رأسه بين يديه، كما لو أنه لا يصدّق ما التقطت أذناه من فظاعة. ها قد حانت اللحظة التي كان يهابها. استيقظ الغول النائم داخل الطفل الذي لم يفهم لماذا، بغتة، تتغلب رغبة الانتقام على رغبة العفو والتسامح. الشاعر على حق: يوجد داخل كل دين من الأديان التي أنزلها الله على عباده قسط خاص بالشيطان؛ قسط صغير ولكنه كافٍ لتشويه الرسالة وتزويرها، وجرّ الغافلين عبر دروب الزيغ والوحشية. إن هذا القسط الصغير هو الجهل. يقول سعيد صايم: "ثلاثة أشياء لا ينبغي وضعها في يد الجاهل؛ الثروة، يبذرها ويشقى بسببها. السلطة، يتعسف في استخدامها؛ الدين، يضرّ به نفسه والآخرين." ارتعد الحاج صالح. في البدء كان لطف الله العليم بالامتحانات المنتصبة طبيعياً أمام أكمل مخلوقاته ولكنه أضعفها أيضاً، تلك التي تولد في الألم، ولا تحافظ على حياتها إلا بمعارك وحشية، من بروز أسنانها الأولى إلى آخر أنفاس احتضارها. ولكن البشر لا يحسنون قراءة الإشارات. يؤوِّلونها حسب أهوائهم. يصنعون من الحلم وهماً، ومن النور ناراً، ويصبحون ظالمين ومجنونين.

خرج الحاج صالح من شروده، ببُطء شديد. لم يجد الطاقة اللازمة لتمرير يده على وجهه الذي يسيل

عرقاً. جال ببصره تباعاً على قادة وتاج ويوسف وإسماعيل وقال:

- أتعرفون لماذا أمَرَ الله إبراهيم بأن يضحي بابنه العزيز؟

- طبعاً.

- لماذا؟

- كي يمتحن إيمان إبراهيم، قال يوسف.

- هذا هو الجهل بعينه. هل تريد القول إن الله كان يشكّ في نبيه؟ أليس هو العليم بكل شيء ؟... أراد الله أن يبعث رسالة للبشر أجْمعين. حينما أمَر الله إبراهيم أن يذبح طفلاً في أعلى الجبل، ثمّ فداه بكبش، فلأنه يريد أن يفهم البشر أن للإيمان حدوداً أيضاً. يتوقف الإيمان عندما تُهدّد حياة البشر. ذلك أن الله يعرف معنى الحياة. وفي الحياة تكمن رحمته الواسعة.

وُضع كيس الكتان وسط الجسر بحيث يمكن لأول قادم أن يراه. كان مغطى بالذباب. أبعدت رائحته الكريهة الطيور. كان جلول في حالة صدمة. برق شيء ما في ذهنه المضطرب وسافر به بعيداً في ماضيه. رأى نفسه طفلاً مغلفاً في غندورة رثة. كان ذلك في صبيحة شتوية من سنة 1959. المطر ينهمر بغزارة. يحمل

جلول الطعام لأبيه، العامل الموسمي عند اكْسافْيي. في الجسر وجد كيساً ـ شبيهاً بهذا الكيس تماماً ـ يطل منه رأس بشري. ولأنه لم يفهم ماذا يحدث بالضبط، ولأنه لم يقوَ على الهرب ولا الصراخ، غرق جلول في الجنون. يحوي هذا الكيس الجديد المتروك على الجسر رأس رجل مقطوعة. إنها رَأس إمام القرية، الحاج صالح. شدّ جلول صدغيه بكلتا يديه وبدأ يصرخ، يصرخ...

18

لم تجمع الجنازة إلا قليلاً من الناس. قدّر الكثير أنه من الحذر أن يبقوا بعيداً عما يحدث كي لا يعرّضوا أنفسهم لأي مكروه محتمل. كان الشُيوخ ذابلين، بلا صوت. لفّوا أجسادهم بالبرانيس والعباءات وأضحوا مثل الأشباح. تخللت كلمة التأبين ثغرات صمت طويلة. حينما وضع الحفّار رأس الإمام داخل القبر، انهار الحاج منوّر عند قدمي الحاج موريس، ولم يبادر أحد لإيقافه.

عند نهاية مراسم الدفن، سأل طفل أباه عن السبب الذي جعل الإسلاميين يتعرّضون لرجل دين. أجاب الأب: "المؤمن الحقيقي يبدأ دائماً بنفسه".

لم يُعثَر على بقية الجثة إلا بعد شهر في جبل الخوف وقد نهشتها الذئاب.

لم تجد غاشيمات الوقت لتجفيف دموعها. في الليلة نفسها، تمّ خطف عون البريد والمواصلات من

بيته. أجبرته جماعة مسلحة على تسليمها الأموال المودّعة والطوابع الضريبية، ثمّ أشعلت النار في المقر وأخذته معها.

هَيمن الرعب على القرية. غرق السهل في عالم موازٍ، تحفّه البشاعة. لم تتمكن الشمس الحارقة من تخليص الأيام من العتمة السائدة. حينما يخيّم الليل، تطارد الناس والأصوات كما الغولة الماكرة الناهمة، ويختفي الناس في بيوتهم ويلتزمون الصمت المطبق. الأخبار الواردة من هنا وهناك تذكي الخوف: تمّ حرق مصنع مولاي نعيم؛ تعرّض مقر الشرطة بحاسي مسخوط إلى التفجير؛ الطرقات لم تعد آمنة، خُرّبت الأضرحة، نُبِشت المقابر...

ذُبح ابن حبيب الحلاق في مولاي نعيم. إنه مُجنّد في الخدمة العسكرية واستفاد بتسريح لبضعة أيام. رآه زان القزم عندما نزل من التاكسي وأبلغ إسماعيل عيش مباشرة. في مساء ذلك اليوم، عندما خرج الجندي من الحمام اعْترضَه أفراد من الجماعة المسلحة. قال له يوسف، ابن الحاج بودالي: " حسناً فعلت بمجيئك إلى الحمّام. سنُعْفَى من غسل جثتك قبل الدفن". اعتقد المجّند أنها مُزحة كئيبة. كان يوسف صديق طفولته. لقد تمّ ختانهما في يوم واحد من قبل حجّام القرية. مات واقفاً تحت صدمة الضربة الخائنة، اليدان متشبثتان برقبته المقطوعة. عثر عليه أبوه ممدداً على قارعة

الطريق. كان عارياً ومشوّهاً. الشيء الغريب أن الزقاق كان خالياً. لا أحد رأى أو سمع شيئاً. دفن حبيب الحلاق وَلده في مقبرة مولاي نعيم، مُحاطاً بعائلته وبعض المعارف الذين كانوا محرجين من حضورهم. قال لقريب له: "لو قتلوه في اشتباك عسكري، البندقية في اليد، كنت سأقبل الأمر. ولكنهم اغتالوه قرب بيته، بلا سلاح وبلا سابق إنذار، وهذا سوف لن أغفره لهم أبداً". كان زان القزم حاضراً، يتظاهر بالعطف، فأسرع يروي بأمان ألَم الحلاق وكلامه المتهوّر. بَعد ثلاثة أيام، وُجد هو الآخر مذبوحاً من الوريد إلى الوريد داخل صالون الحلاقة.

مع ذلك، وبعد رعب المآسي الأولى، كان موقف أهل غاشيمات مدهشاً. توقّع داكتيلو أن يرى الناس ينتفضون، أو على الأقل يدينون الأعمال البشعة. شيئاً فشيئاً، في المقهى، في السوق، في المسجد، تركت الصدمة مكانها للهو والتسلية. بدأ الناس يجدون مجداً وبطولة للاعتداءات المتكرّرة، وشجاعة الفرسان للقتلة، وشرعية وتبريرات للاغتيالات. ذات صباح، حينما اكتُشفت الجثة المفحمة لمازا البواب، وسط الهياكل المدخنة لسيارات البلدية، قيل إن مازا كان وقحاً ونذلاً في معاملاته مع القرويين الوافدين إلى مصالح البلدية، وأنه مرتشٍ، وأنه يستحق عقابه نظراً للإهانات التي وجّهها، سابقاً، إلى عيسى عصمان المسكين. أما حينما

وُجد دحمان، شرطي سابق متقاعد، في مولاي نعيم، مشنوقاً في زريبة حيوانات، سارع الناس إلى العدّ على الأصابع التجاوزات والانحرافات التي جمعها الشرطي خلال فترة وظيفته كـ"حقّار الشعب".

- مَن لا تبن في بطنه، لا يخاف النار، فيمكن أن ينام ملء جفونه ولا يخاف شيئاً. إن الذين قُتلوا ليسوا كلهم ملائكة.

حلّ الربيع ولكنه لم يبهر أحداً، لا البشر ولا الحيوانات. تُذكّر شقائق النعمان بالجراحات المنتفخة. توسّع الجناح اليساري للمقبرة والتحق بالسور. لا يمر يوم بدون أن يأتي موكب ليسلّم فقيداً عزيزاً لأرض أضحت مرتع الرفات .

ذات ليلة، غامر علال سيدهم في الذهاب إلى بيته. باغته زان القزم وهو يتسلل خلسة على حافة شجيرات تين الصبار كما السارق. "لا تبق هنا أيها الشرطي. يمكن أن يصل إليهم خبر مجيئك ويتعرّضوا لك". ثمّ، وأمام خيبة أمل عون الأمن: "طيّب، بما أنك هنا، يمكنك البقاء الليلة. يوجد المخبرون في كل مكان، أعدني بأنك لن تخرج من بيتك. إذا رأيتُ شيئاً مشتبهاً فيه، سأخبرك، بشرط أن تغادر قبل الفجر". تردّد علال: "لا داعي لذلك. سأعود فوراً. لا تقل لأحد بأنني أتيت". عاد علال على عقبيه واختفى في العتمة.

لم يبتعد زان. مشى بعض الأمتار واختفى خلف سور، وعيناه لاصقتان بباب المنزل. بعد ساعة، عاد علال يختلس الخطى، يكاد يزحف. تركه زان يدخل البيت وركض يخبر يوسف المكلّف تصفية طواغيت القرية والذي يأتي كل ليلة يطوف بالمكان كي يتدخل بمجرد أن يُخبر بوجود غير المرغوب فيهم.

عند الثالثة صباحاً، استيقظت سارة على أصوات خافتة. اقتربت من النافذة، فباغتت شبحين يتسلقان حائط الفناء. لم يجد علال إلا الوقت الكافي لارتداء ملابسه والهرب من الخلف. طاردته رصاصات عبر الأزقة. تصدّى لهم في الظلام، سمع أحد المعتدين يصرخ وركض عبر الحقول كالمجنون.

كان قادة هلال غاضباً. يذرع بفظاظة أرضية الكوخ الذي يستخدمه كمقر قيادته في أعلى جبل الخوف. بقي يوسف في استعداد عسكري، شاحباً ولكنه مستقيم. يتسلى تاج عصمان بجذب عود حطب بموسى، مؤخرته على جيريكان وقدم إزاء رافدة خشبية. في الخارج، انشغل إسماعيل عيش بتدريب المجندين الجدد على فكّ بندقية حرب وتركيبها سُلبت من جندي قُتل في كمين ضد عناصر الجيش. صرخ قادة:

- تركته يهرب من بين يديك. سَبعة مقابل واحد، واستطاع أن يجرح أحدكم ويختفي في الطبيعة.

- أكيد أننا أصبناه برصاصنا.

- ولكنك لست متأكداً.

- نحن بحاجة إلى أسلحة متطورة. بنادق الصيد مداها قَصير جداً.

قال تاج وهو يغلق سكينه بضربة حادة:

- لو تمكنت من القضاء على علال، لكان مسدسه الآن معلقاً في حزامك مثل الغنيمة.

صرف قادة يوسف وجماعته. أراد أن يكون وحيداً. تراجعت الجماعة القهقرى. أغلق تاج الباب خلفه وتوجّه إلى الأمير.

- فعلوا ما استطاعوا.

- أرى أن هذا غير كافٍ. أريد رأس هذا الكلب.

جلس تاج على مقعد، ربّع قدميه على الطاولة، عقبا حذاءيه قبالة الأفغاني. كان يتأمّل أظفاره بهيئة متأثرة. قال واعداً:

- سآتي لك برأسه على طبق، مَقطوعاً يقطر دماً.

عبر النافذة، أبصر قادة قطيعاً من الغنم يرعى، وبعض السيارات القليلة المسروقة التي يستخدمها أعضاء وحدته، والخيام المختبئة تحت الأغصان والسجين المقيد عند أسفل الشجرة.

- ماذا تنتظرون كي تعدموا هذه الحشرة؟

- نعمل على إدامة المتعة.

- هل قال شيئاً؟

– إنه حديث التجنيد بالجيش. لم يحفظ حتى اسم رئيسه.

تفرّس قادة في السجين. إنه فتى ضامر، لم يتخطّ بعد المراهقة. لم يتوقف عن الارتعاش منذ اختطافه خلال حاجز مزيف.

– أريد رأس علال.

– سآتيك برأسه... والباقي.

قطّب قادة حاجبيه:

– ماذا تقصد؟...

وقَف تاج وجاء يخيم قرب الأمير:

– سارة.

أراد قادة أن يحتج، ولكن نظرة مرؤوسه الباردة ثنته.

نظر القروي بِحَيرة إلى التجمهر المزدحم قرب المسجد، فنزل من على ظهر حماره، واقترب من شاب غارق في قراءة الملصقات التي علّقها الأصوليون على جدار .

– ماذا يوجد في هذه الأوراق؟

لوى زان القزم رأسه كي يتعرف على القروي، شيخ بوجه مومياء ويدين كبيرتين خشنتين. قال القزم مشيراً إلى ملصقة اليسار:

- هذه قائمة الفائزين في اللوتو. وهذه - مشيراً إلى الأخرى - قائمة الرهان الرياضي.

غمغم القروي دون أن يفهم شيئاً.

على ملصقة اليسار، يبدأ البيان بحديث شريف ويسجل السلوكات التي ينبغي للمؤمن أن يمتنع عن ممارستها. إضافة إلى المحرمات التقليدية المشهورة، دوّنوا المحرمات الجديدة مثل الحمّام العمومي، وقاعات التجميل والحلاقة النسائية، ارتداء التنورة، المساحيق، الموسيقى، قراءة الأبراج والتدخين وقراءة وشراء وبيع الصحف والمُقعّرات الهوائية وألعاب الحظ والشواطئ، إلخ...

وعلى ملصقة اليمين، وبعد آية قرآنية مكتوبة بخطّ معوج، تتالت أسماء الشخصيات التي اغتالها الأصوليون والأسباب التي أدّت إلى ذلك. إلى جانب الأسماء، كتبت عبارات: طاغوت، مرتد، حركي، عدو.

لا يزال الاقتتال مُنذ سنتين. بعد عملاء السلطة وحُلفائها والمترددين، اتسعت مجسات البربرية إلى جميع الأصناف. فتمّ قتل وذبح الفلاحين والمعلمين والرعاة وحراس ليليين وأطفال ببشاعة لا نظير لها. بدأ الناس لا يرون شجاعة الفرسان في تصرفات الإسلاميين المتطرفين. أدرَكوا أن الضحايا هم دائماً الغلبة والبؤساء، ولا أحد يعيش حقاً في أمان. تمّ

اختطاف الفتيات واغتصابهن وذبحهن ورمي جثثهن في البراري. كما تمّ تجنيد الفتيان بالقوة وشحن أذهانهم بالفتاوى الضالة. تمّ ابتزاز أصحاب المحلات. واستخدموا البطالين تحت ذقونهم. يُكلّفون أولاً الحراسة والمراقبة، ثمّ يسوّقون بعض المسروقات ويوصلون بعض الرسائل والأموال، لينتهي بهم المطاف إلى حمل السلاح رغماً عن أنوفهم. لا يجدون الوقت لإدراك ما يحدث لهم حتى يكونوا قد ضغطوا بأصابعهم على الزناد.

ابتهج قادة هلال. الحق مع تاج عصمان. في البداية، عندما رأى نفسَه على رأس حوالى ثلاثين متطوعاً، تبخّر نصفهم مع الاشتباكات الأولى مع قوات الأمن، كاد أن يضَع السلاح ويهرب إلى بلد أجنبي. ولكن تاج كان ساهراً. لمْ تثنِه الخسائر ولم تخفه. قال: "إياك أن تيأس، يا أميرنا. إنّ عدد المتطوعين لا يحصى ولا يعد. ينتظروننا عند أسفل الجدران وفي عمق المقاهي، غارقين في الهلع والقرف. تكفي منا إشارة كي يلتحقوا بنا. حتى وإن كانوا لا يؤمنون بعقيدتنا، حينما يعون الخطر الذي يشكلونه، والغنائم التي سيجنونها، حينما يدركون أن حياة الآخرين وأموالهم ستكون ملكاً لهم، سيكتشف كل واحد من هؤلاء التعساء أن باستطاعته أن يتحوّل إلى إله صغير، يُحيي ويميت. إن البؤس لا يؤمن بواحات السلم. انزع

له لجامه، ستراه يَنقضّ على سعادة الآخرين. إذا أردت الرهان على وحش دائم، اختَر واحداً من بين المعوزين. فجأة سيحلم بإمبراطورية غاصة بالمذابح والعاهرات وإنْ كان يملك جناحين، سيرغب في استخلاف الشيطان."

19

قال داكتيلو لمراد:

- يجب أن تحاول إنقاذ أخيك. إنه فتى هادئ، مكانته بين ذويه.

هزّ مراد كتفيه:

- لا أستطيع فعل أي شيء من أجله. لا أعْرف بمَ حشَوا مخّه. إنه مقتنع بأنه في الجهة الصائبة.

لفّ إلياس الحدّاد سيجارة، ربّتها على ركبته وأشعلها بوقادة. بقي الدخان معلّقاً في الهواء، عاجزاً عن الوصول إلى السقف بسبب ارتفاع الحرارة. وقف ومشى من النافذة إلى الباب، شارد الذهن. مرت ساعتان وهم يتناقشون داخل منزل الكاتب العمومي، وبدأ يشعر بوجع في الرأس. قال مراد بنوع من الحزن:

- إن بوجَمعة كان دائماً متقلّب الرأي. يدور كما تدور الريح. فمنذ أن التحق بالجبل، لم يعد أبوه يجرؤ على الظهور في الشارع.

- أنت تملك قليلاً من التأثير عليه.

- ليس الآن. الدرك يبحث عنه.

قال إلياس غاضباً:

- أنا لم أعد أفهم شيئاً. هل يمكن لأحدكما أن يشرح لي ما يحدث بالضبط؟ إذا كان هذا هو الدين، فأنا لست بحاجة إليه. إذا كان الجهاد يسمح بذبح رضيع، فتبّاً لهذا الجهاد. كل ليلة أجدني أقول مع نفسي: "سترى، ليس إلا كابوساً. في الصباح ستستيقظ وسينتهي كل شيء". عند طلوع النهار، لم أكن قد شربت قهوتي حتى يأتينا خبر مقتل جار. يا ناس، أريد أن أفهم، ماذا يحدث في هذا البلد...

سأله داكتيلو:

- ماذا تريد أن تفهم؟ الأمور واضحة كما الشمس.

- ما هو الشيء الواضح كالشمس؟ الأزمنة الغابرة، توحش البشر، هذه الحرب القذرة؟ لماذا يتصرف الأئمة كما لو أنهم لا يسمعون ولا يرون شيئاً ؟ لماذا يبقى الجميع مكتوفي الأيدي؟ إن حظوظنا في إيقاف المأساة لا يتم بتجاهلها. هل هذا هو الدين؟

قال داكتيلو:

- ليس للدين أي دخل في ما يحدث. هذا تضليل يا عزيزي. ومنذ البداية المشكل في مكان آخر. خطّة مدبرة في الخفاء، ضحكوا على الشعب المسكين. فرّقوه وقالوا للبعض: "هؤلاء طغاة". وقالوا للبعض

الثاني: "هؤلاء إرهابيون". وانسحبوا ليتركوهم يتقاتلون.

- ولكن لماذا؟

- كي يخلو لهم الطريق. يتعلق الأمر بالرؤوس الكبيرة والأموال الضخمة والاستثمارات الرابحة...

صمتوا فجأة. تحرك شبح في الفناء. نبح زان القزم مظهراً رأسه عبر فتحة الباب:

- أنا زان، لا تخشوا شيئاً.

قال داكتيلو منزعجاً:

- لا ندخل بُيوت الناس دون استئذان.

- كان الباب مفتوحاً.

- الباب كان مغلقاً.

- أقول لك إنني وجدته مشرعاً على مصراعيه. لست شبحاً كي أخترق الأسوار.

تأمّل الرجال الثلاثة القزم الملتف في قميص بشع المنظر.

- ماذا تريد؟

- كنت أطوف في الضواحي. أظن أنّني لا أزعجكم.

قال مراد:

- لا يا غبي.

أخرج زان قنينة "ريكار" وأشهرها بحماسة:

- لم آتِ فارغ اليدين.

ردّ إلياس ساخراً:

- إنها المرة الأولى التي تتمكن من إخفاء شيء. في العادة، أنت الذي تختفي وراء الأشياء.

- هذا دليل على أن قيمتي تعاظمت.

خطف مراد القنينة وملأ بسرعة الكؤوس المتناثرة على الطاولة وسط صحون مُتَّسِخة وأعقاب سجائر.

أضاف إلياس بنبرة شاكة:

- ظننت أنك عدت إلى الطريق المستقيم.

تنهد زان على طريقة معلّم لم يتمكن من إفهام درس لتلميذ له:

- هيه... إننا نعيش عهداً مرعباً. الجميع يتحدث عن الله ولا أحد يعرف أي إله يقصدون.

واصل إلياس مستفسراً:

- لم نعد نراك في المساء. هل أصبحت لا تتعرف على طريقك في العتمة؟

أزعجه فضول الحدّاد، ولكن زان حافظ على هدوئه. قال:

- إن الأقزام ليسوا خناثاً.

- هل أفهم أنك وجدت امرأة تُؤويك؟

- نحن في بلد ديمقراطي.

- هل هي قزمة مثلك؟

- أرملة مثل الخزانة، ذات نهدين لهما قدرة تزويد جميع مصانع الجبن في منطقة وهران.

- هل تركبها فعلاً؟

- أحياناً أستعين بمقعد مثلما علّمتني وأحياناً أخرى هي التي تركبني.

- وهل تمكنت من دغدغتها؟

- ألا تعرف بأن ما افتقدته في الاتجاه العمودي ربحته في الاتجاه الأفقي؟

- هذا صحيح: لك قدمان كبيرتان.

احمرّ وجه زان. أرجفت تشنجات جامحة وجنتيه. لمُدة طويلة، بقيت نظرته منغرسة في عيني الحدّاد. قال بنبرة جامدة:

- يا صديقي إلياس، أنت لا تأخذ حذرك بما فيه الكفاية.

لم يتناول داكتيلو كأسه، ليوضح للقادم أنه لا يرحّب به ضيفاً في بيته. انكمش داخل كرسيه المبطّن، أبقى أنفه بين يديه المَضمومتين ورفض الاهتمام بالقزم. في الخارج، طفق حمار ينهق.

دفع إلياس كأسه أيضاً:

- ربما يكون مسموماً.

تفرّس زان في الكاتب العمومي ثمّ الحدّاد، وبعد ذلك مباشرة أمسك بالقنينة وخرج مغمغماً دون أن يلتفت. اضطر إلياس إلى الركض وسط الحقول كي يلتحق به عند ضفة الوادي- . لم أنهِ كلامي معك بعد

يا نصف-قذفة. ماذا تقصد بحكايتك حول عدم اتخاذ حذري؟

دار زان على عقبيه، صعد عبر درب. أمسكه إلياس من الذراع، وجذبه إليه بعنف.

- أريد تفسيراً أيتها الجرثومة.

- ليس لي شيء أقوله لك. حينما تتوقف عن استفزازي...

- لا، ليس هذا هو المقصود. أجدك غريباً في الأيام الأخيرة. أنا متأكد أنك لا تلتحق بأية أرملة ليلاً. هل أنا مخطئ؟ قل: هل أنا مخطئ؟ ومع ذلك هذا ما أتمناه من صميم قلبي: أن أكون مخطئاً في تقديري تجاهك. لا تلفت وجهك حينما أكلِّمك. قل لي إنك بريء مما يحدث في القرية من تقتيل وتخريب...

احتج القزم بقوة:

- ما دهاك يا هذا؟ إِحذر مما تقول. هل تريد إلصاق كل الجرائم التي ارتكبت في القرية بي؟ أنا، لا علاقة لي بتاتاً بهذه الجرائم.

- إنه شيء مرعب يا زان، شيء مرعب فعلاً. لا يوجد أي فرق بين الشخص الذي يقتل ويذبح وبين الشخص الذي يدله على الضحية. احذر يا صديقي الصغير، لا تُغرك غنائمهم. يتعلق الأمر بحياة آدميين. هذا ليس بالأمر الهين، احذر أن تقع في الوحل.

دار القزم على نفسه مستنكراً، وحطّم قنينته على صخرة:

- ماذا تقول يا هذا؟ هل تظنني أخبل؟ لي أصحاب بين المتوفين. إنني أحبهم مثلما أحب مراد وبوجَمعة وأنت.

- إذاً قل لي من أين لك هذه الأموال التي تبذرها يميناً وشمالاً؟

- هذه أوهام يا إلياس.

- وقطعة الأرض التي اشتريتها من النجار؟

- هل تتجسّس علي أم ماذا؟

- أسهر عليك.

- أفهم من كلامك أن الأقزام لا يحقّ لهم امتلاك سقف ليتزوجوا ويعيشوا حياة طبيعية...

- إن الذي يحدث لك ليس طبيعياً. تقضي معظم وقتك في المقهي أو في المسجد، وجيوبك تفيض أموالاً...

- أقول لك صراحة إنك تغار من حظي.

- إن حظك هذا يربكني.

تخلص زان من قبضة إلياس مثل النابض. وضع سبابته بقوة على صدر الحدّاد. كان وجهه شاحباً وعيناه جاحظتين وشفتاه مزبدتين. قال:

- تريد أن تعرف ماذا أفعل بلياليي، أيها الحدّاد؟ طيّب سأقول لك: مخدّ-رااااات. هل أنت راضٍ الآن؟

أبيع الحشيش... والآن افْعل ما شئت. أنا راشد وأقود حماري في الاتجاه الذي يعجبني. ولا أحد له الحق في محاسبتي.

بعد هذا، بصق جانباً والتحق بالقرية.

في تلك الليلة، اختُطِف إلياس. ولم يعثر أحد على جثته.

IV

20

كدّس رابح، الأخ الأكبر لبلقاسم الخباز، الصُرر الأخيرة داخل الشاحنة. كلّما عاد إلى داخل المنزل قضى وقتاً طويلاً قبل أن يخرج. تارة يتأخر في هذه الغرفة أو تلك، وتارة أخرى يقف قرب شجرة الليمون، شارداً، تعيساً، ثم يمسك بكرسي أو برزمة ويلتحق بالسيارة.

من الرصيف المقابل، يُراقبه الجيران في صمت. تكاثر الأطفال في طرف الزقاق، بعضهم مقرفص، والبعض الآخر جاثم على أغصان أشجار معذبة.

جفف رابح وجهه بطرف عمامته. ذراعه ترتعد. يتأمل السماء وقمة الهضبة والحقول. لَمْ يلتفت ولو مرة واحدة نحو الرجال. لقد قُتل أخوه داخل المسجد. كما نجا هو بأعجوبة من محاولة اغتيال. الآن، وبما أنه تلقى رسائل التهديد بالقتل، قرّر مغادرة القرية دون

رجعة، القرية التي وُلد وعاش فيها إلى سن الشيخوخة ولم يعد يتعرف عليها ولا على ناسها.

كان زان القزم يتبختر قرب الشاحنة، مرتدياً بزّة جديدة. تعمّد عدم نزع البطاقة الملصقة بنظاراته الشمسية كي يؤكّد أصالة ماركتها. منذ بضعة أيام، لم يعد يتحرّج من عرض مصوغات نجاحه في وضح النهار. بواسطة منديل حريري، يدعك جلد حذاءيه، أدارهما باتجاه الشمس كي يتلألآ، ثمّ وضع إبهامه تحت حمالات سرواله وجذبها بزهو. قال متوجّهاً إلى رابح:

- ألم تنسَ شيئاً؟ هل فتّشت جميع الزوايا؟ هل يمكنني أن أستولي على منزلي، الآن؟ لقد نصحني خياطي بألا أعرض بزّتي للضوء، أتفهم مقصودي؟

ألقى رابح النظرة الأخيرة على منزل أسلافه، نحو الحوض الذي سبح فيه حينما كان طفلاً، ثم التفت إلى الخردة المكوّمة فوق قحّافة الشاحنة. برقت دمعة في عينه. مسحها بحركة فظة، تسلّق إلى داخل القَمْرَة وطلب إلى السائق أن ينطلق. اهتزّت الشاحنة في هدير حاد، سلكت طريقاً وسط الحشد، قبل أن تطاردها جماعة الأطفال الصائحين.

بادر زان القزم بحركة وداع باتجاه الغبار، وابتسامة تشقّ وجهه من الأذن إلى الأخرى. قال:

- ينبغي تغطية هذه القارعة بالإسفلت، وإلا سيمزّق الحصى حذائي الجديد.

أمام صمت الشيوخ، سوّى ربطة عنقه وأضاف بصوت مسموع أكثر:

- سأعيد صيانة هذا الكوخ كلية. سأضع الحجر المنحوت على الواجهة، والقرميد الأخضر فوق السقيفة، والجرس الكهربائي بمكبر صوت كي أعرف من القادم دون أن أتحرّك من الصالون. أسأل عن الطارق في مكبر الصوت، إذا كان صديقاً، أضغط على الزر وينفتح الباب أوتوماتيكياً، مثلما نرى في الأفلام الأمريكية. سأضع مصباحاً بالحديد المنقوش في الفناء، ومِرَشة دائرية في الحديقة وشرفات مرتفعة للجلوس المريح مع الأصدقاء...

انسحب الناس، الواحد بعد الآخر، فزّزتهم وقاحة زان الثرثارة. ابتعد الحاج منوّر من جهته، منهاراً، قسمات وجهه متشنجة من الاستنكار. غمغم:

- ستصبح هذه القرية مثل وجار الكلاب. زان القزم، هذا التافه الذي لا يكاد يخرج من الأرض، أصبح مالكاً. كان عليّ أن أموت منذ قرن.

مَشى عبر الساحة الخالية. على شرفة المقهى، جلست حفنة من القرويين، اليد على الخد، والعين جاحظة. لقد حرّم الأصوليون ألعاب الدومينو والورق،

ولا يعرف رواد هذه الألعاب المسلية كيف يملأون فراغهم اليومي. من الصباح إلى غروب الشمس، يتثاءبون إلى حدّ شقّ أصداغهم، تلفهم الكآبة وتصدهم عن تبادل أطراف الحديث.

توقّفت سيارة أمام الحاج منوّر. نزل عيسى عصمان، متبختراً في بَرْنوسه، لامعاً بملابسه البراقة، ألقى ضربات يد خفيفة على مقدمة عباءته ومرّر أصابعه تحت عمامته:

- إنني أبحث عنك يا سي منوّر.

- آه...

- سمعت أنك كنت مريضاً.

ردّ الحاج منوّر معترفاً:

- وعكة بسيطة، نَزْوة شيوخ. إنها الحيلة الوحيدة التي بَقيت لنا كي نجعل ذريتنا يشفقون علينا قليلاً... آه، بحثت عني... خير إن شاء الله...

ألقى عيسى عصمان نظرات مريبة حوله.

- ليس هنا. تعال إلى سيارتي.

تردّد الحاج منوّر أمام البوابة التي انفتحت له. حثّه الحارس السابق قائلاً:

- مسألة دقائق معدودة... الأمر مهم جداً.

استجاب الشيخ رغماً عنه. دفع عيسى عصمان بسيارته إلى مدخل القرية الغربي، تدحرجت بمحاذاة الوادي واتجهت نحو مزرعة اكسافيي. صاح بحماسة:

- أتتذكّر كيف كانت مزرعة اكسافيي؟ كانت رائعة، جنة فوق الأرض. يا لها من أيام... يا لتلك الحفلات التي كنا ننظمها، ويا لضباط الجيش الفرنسيين في أزيائهم الفاخرة، والقادة الذين يشبهون السلاطين، والنساء... آه على النساء. جميلات مثل حور الجنة. أتتذكر الدوالي الممتدة عبر السهل، لا تسعها الرؤية، والأمطار التي كانت تتساقط بلا انقطاع، والغلّة التي تتجاوز كل التوقعات؟ يا له من زمن جميل يا الحاج منور... بشرفك، أليس ذلك العهد جنة؟

- أنا لا أتذكر شيئاً من هذا.

- صَحيح: الجاحدون لا ذاكرة لهم. ولكن أنا أتذكّر كل صغيرة وكبيرة. حينما ذهبت عائلة اكسافيي، أخذت في حقائبها روح السهل، وعبادة العمل، وعظمة الحفلات والأمطار أيضاً... غَريب حقاً، الأودية جفّت هي الأخرى. تركوا لنا مزرعة تنضح حياة، صيّرناها مفرغة للقاذورات. نظر كيف تحوّلت أشهر مزرعة في المنطقة: خَراب في خراب. أصبحت الحقول مرتعاً للأنذال والسكارى. والغابات التي كنا نقضي داخلها نهايات الأسبوع، صارت أدغالاً قاتلة...

- ماذا تريد مني يا عيسى؟

- لقد اشتريت المزرعة في الفترة التي كان إسماعيل عيش رئيساً للبلدية. ولي نية إعادة إحيائها. سأغرس الدالية من جديد...

- وأنا ما شأني في الموضوع؟

أوقف عيسى سيارته تَحت شجرة، فكّ عمامته، رماها على المقعد الخلفي. تجمّدت عيناه في رأسه الدائري:

- إن موريس في خطر...

ضحك الحاج منوّر بصمت. ألحّ عيسى:

- إنها الحقيقة. لقد حاول تاج ابني أن ينقذه، ولكن هذه المرة، نزلت الأوامر من فوق ولا يستطيع شيئاً.

فقد الشيخ التحكم في أعصابه:

- انتظر... انتظر... ماذا تريد أن تقول؟

- في أي عالم تعيش يا سي منور؟ لقد صدرت فتوى بعدم قبول أي أجنبي على هذه الأرض. ومن يرفض مغادرة البلد سيُقتل.

حدّق الحاج منور في محدثه، غير مصدق ما يسمع، باحثاً عن أثر مزحة كئيبة على شبكة التجاعيد التي تشوّه قسمات وجهه. كان وجه عيسى مروّعاً.

- لا أفهم جيداً ماذا تقصد.

- موريس أجنبي.

- ومنذ متى من فضلك؟ جدّه ولد هنا. سكنت عائلته في السهل قبل الكثير منا. إن ما تقوله حماقة.

- ربما، ولكنها الحقيقة. اسمه مدوّن في القائمة السوداء.

- هل أنت متأكّد؟ هل يتعلق الأمر باسمه حقاً، باسْمه الحقيقي، باسمه هو؟

- أكرّر لك: إذا كان الحاج موريس لا يزال على قيد الحياة فبفضل تدخل تاج ابني. اخترت أن أحدثك أنت لأنك صديقه العزيز. عليك أن تخبره، وتقنعه بمغادرة البلد في أقرب وقت ممكن.

- سوف لن يَقبل المغادرة أبداً.

- ومَع ذلك يجب أن يغادر هذه القرية اليوم قبل الغد.

- أين تريد له أن يذهب؟

- إلى فرنسا.

- لا يعرف أين تقع، لم يزرها البتة.

- إذاً ليذهب إلى وهران أو إلى أي مكان آخر، حيث لا يعرفه أحد. أنا مستعد لمساعدته. لا، سوف لن أترُكه يسقط. كان تعامله لائقاً معي، لن أنسى له هذا الفضل أبداً. منذ أن عرفت الخطر الذي يُحدق به، لم يعد يغمض لي جفن.

- تمهل قليلاً، لا تُسرع... إنّ هذه القصة لا تدخل مخي. لا يجرؤ أحد على مس الحاج موريس بسوءِ. هذا غير مُمْكن. ولا أصدّقه أبداً.

طبطب عيسى بقبضته علي المقود:

- ليس لك الحق في الاستخفاف بأمور جادة كهذه. لو كان لديك مثقال ذرة من العطف والشفقة

تجاه هذا المخلوق لركضت لحماية رقبته من الذبح. ألم تسمع الأخبار؟ لقد تمّ ذبح كثير من الجزائريين من أصول أجنبية. هم أيضاً لم يأخذوا التهديدات مأخذ الجد. كانوا يعتبرون أنفسهم أبناء البلد الأصليين كما العرب تماماً. النتيجة: لم يسعفهم الحظ لتأكيد صحة اعتقادهم. كما تمّت تصفية مقيمين من دول عربية وإفريقية. إننا الأمة الأكثر عنصرية على وجه الأرض. عرف سُيّاح بسطاء ووكلاء تجاريون حقيقة بشاعتنا بعد فوات الأوان.

- أرفض أن أصدّق مثل هذا الأمر الفظيع.

- أنت حرّ في التصديق أو عدم التصديق. المهم أن الحاج موريس يجب أن يغادر القرية فوراً. أعْرف أنه لا يملك القدر الكافي من المال كي يستقر في مكان آخر. لهذا أتقدّم لشراء منزله. ولا أناقش سعره. ولكن يجب أن تتصرّف بسرعة .

ردّ الحاج منوّر وهو يهزّ ذقنه بقوة:

- لا يا عيسى. لسنا أكثر عنصرية من غيرنا.

- لا فائدة من دفن رؤوسنا في الرمال مثل النعامة، يا سي منور. الحقيقة هنا. إن رفض قبولها لا يغيّر من الواقع شيئاً. للأسف الشديد، أنا أيضاً غاضب ومرعوب...

- اسكت... لوجه الله، اسكت.

نزل الحاج منور من السيارة والتحق بالقرية، يُحرّك يديه ويتمتم مثل من سكنه عفريت.

أخذ عيسى عمامته، لفها بعناية حول رأسه، تأمل سحنته في المرآة الارتدادية. أعجبه منظره، غمز بطرف العين وقال:

- أنت تملك قلب أفعى يا عيسى العار. أتساءل كيف لهذه المرآة أن تعكس حقارتك دون أن تتكسّر.

أعلن الحاج منور بكآبة ظاهرة:

- لا يريد أن يسمع أحداً.

هزّ ارتداد انفعال الشيوخ المجتمعين في الفناء. تبادلوا النظرات الحائرة، مُرتبكين، يضربون أخماساً في أسداس. ينتظر رجال آخرون في الخارج، تحت الشمس. إنهم هنا منذ الصباح، يطاردون ظل السور المُتقلص شيئاً فشيئاً. وقف داكتيلو غير بعيد برفقة جعفر، يتفرّس في السحن الكئيبة لهذا الجمع من الشيوخ الذين جاءوا عطفاً وشفقة على حالهم أكثر مما هم على حال صديقهم. قال عيسى عصمان قلقاً من داخل سيارته:

- يجب أن نفعل شيئاً.

جاءته ردود كثيرة:

- ماذا نفعل؟ أنطرده من منزله؟

تدخّل زان:

- إن هذا أفضل من البقاء مَكتوفي الأيدي. الحق مع سي عيسى. موريس عنيد ورأسه رأس بغل، ولكن إذا وقع له مكروه، ستحملنا جميع القرى المجاورة المسؤولية.

اقترح ابن سيدي صايم:

- اتْركوني أحَدّثه، لعلّه سيسمع رأيي.

تراجع الحشد المتدافع أمام مدخل الفناء باحترام كي يفسحوا له المجال. حذّره الحاج منور قائلاً:

- سوف لن تصل معه إلى شيء في مسألة الرحيل. تَقوْقع على نفسه ولم يعد يسمع أي كلام.

- أتفهّم حالته النفسية، ولكنه سيسمعني.

دخل ابن سيدي صايم الغرفة المظلمة بنوافذها المغلقة. كان الحاج موريس مكوّماً على كرسيه المصنوع من السَوخر، قبالة السور. تظهر كتفاه ورقبته. ينام نوم العادل. قال الحاج منور شارحاً:

- إنها طريقته في العبوس. بما أنه قرّر أن لا يسمعني، فإنه سوف لن يستمع إلى أي شخص آخر.

- إنه محق في إنكارنا. إنه... إنه...

تلعثم ابن سيدي صايم، لم يجد كلماته. هزّ رأسه وانسحب حزيناً.

انتفض داكتيلو قائلاً:

- في أي عالم نعيش ؟ كيف نسمح بوقوع مثل هذه الأمور؟

وافقه زان بغضب مزيف:

- صَحيح ما تقول. كيف نسمح بوقوع هذا الأمر؟ يقبر أقاربنا وأصدقاؤنا ولا نحرك إصبعاً واحداً. حفنة من الحثالة تفرض علينا قوانينها فيما يمكننا أن نقطب حواجبنا كي يفروا خائفين.

أدخل الشيوخ رقابهم وسط أكتافهم. أعطى داكتيلو ضربة قدم لعلبة مُصَبرات صدئة وابتعد، يتبعه جعفر. ركض زان خلفهم مقترحاً:

- ما رأيكم لو نخفيه في بيتي. سوف لن يوجه الإسلاميون أنظارهم باتجاهي أبداً.

- إسلاميو آخر الزمان. لا أخلاق لهم، إنهم قطيع ذئاب. لسنا نرضع أصابعنا. موريس أجنبي؟ منذ متى؟ منذ أن أصبح منزله محل أطماع البعض...

تخلى زان عن فكرة الالتحاق بهما. كان وجهه يلمع بمتعة مرعبة. انتظر بهدوء أن يراهما يَخْتفيان عند زاوية الزقاق ليعود إلى الشيوخ وهو يفرك أصابع يديه.

خيّم الصرير على الليل. كتمت غاشيمات أنفاسها. إن غاشيمات تكتم دائماً أنفاسها حينما تنطفئ المصابيح العمومية. هذا يعني أن شخصاً سَيموت. تنتفض القلوب خلف النوافذ. الأزقة خالية، لا شَبح ولا صوت... في

حدود الساعة الثانية صباحاً، انبثقت سيارتان من الغابة، قطعتا القرية، دارتا دورة في الساحة ثمّ توقفتا، الواحدة قرب مرأب تاج عصمان، والثانية غير بعيدة، تقوم بالحراسة. صفقت الأبواب. انتشرت أشباح في الزقاق وحاصرت منزل الحاج موريس.

من فوق المئذنة، يراقب المؤذن المشهد، بحلق جاف. عند اصطفاق الأبواب، شلّت ركبتاه واختفى خلف مكبر الصوت، الإصبع باتجاه السماء في دعاء خاشع.

ظهر الحاج منوّر عند مدخل منزله، يمسك هراوة في اليد.

- عُد إلى بيتك.

قال رجل ملثّم وهو يحرّك مِغْلاق البُندقية. سقطت الهراوة من يد الحاج منور، وتدحرجت على الرصيف. تَراجع الشيخ أمام فوهة السلاح واختفى.

لاحَظ يوسف أن باب فناء الرقم 24 لم يكن مغلقاً بالمفتاح. دفعه بحذر وهو يلتصق بالجدار. كانت الساحة الصغيرة خالية. احتلها رجلان، السلاح على وشك إطلاق النار. الغرف فارغة. سرير الشيخ غير مستعمل. قال زان وهو يختلس ساعة منسية على مقعد:

- الكلب... لقد هرب.

ارتفع صوت خلفهم:

- لم يوجد كلب في هذه الدار البتة.

كان حاج موريس مكوّماً هناك، على كرسيه المعتاد، في ظلمة الفناء. أشعل زان عود كبريت ليتمكن من رؤيته. في انعكاس الشعلة، ظهر وجهه المخيف يسيل عرقاً. عثر يوسف على زرّ الكهرباء وأشعل النور في الفناء. بدا الحاج موريس مرتخياً في عباءته الواسعة البيضاء. ببُطء تُحرِّك يده مِروَحة. قال زان مُبتهجاً:

- إنه لم يهرب.

أشهر يوسف سيفاً:

- لقد فضّل الموت على الحياة.

أمسكه بوجمعة من الذراع.

- تكفي رصاصة في العنق.

دفعه يوسف بفظاظة.

- أنا الرئيس هنا.

قال الشيخ مذكراً:

- إنكم في بيتي هنا، ولم يرحّب بكم أحد.

ردّ زان مقهقهاً:

- سنتحرّر... انتهى الاستعمار. الموت لأذنابه.

ارتمى أربعة رجال على حاج موريس، أسقطوه على كرسيه. خرج بوجمعة إلى الشارع كي لا يشهد وقوع المجزرة. صرخ زان مِزهواً:

- انزعوا عباءته... انْحروا رقبته... أريد أن أراه

يتخَبّط مثل خنزير سمين... يا للدنيا اللعينة... أفرغوا هذه الدماء... ليس حيواناً في نهاية المطاف، إنه خزان حقيقي...

اتكأ بوجَمعة على الجدار، يرتعد من الرأس إلى القدمين، وترك بصره يحلق حول الهلال مثل فراشة حول شمعة.

21

حينما كان طفلاً، كان تاج عصمان يأتي دائماً ليجلس قرب باب المرأب لكي يتعلّم مهنة الميكانيك. ولكنه في ذلك العهد، لم يكن ينشغل بعد بهدير المحركات. كان يفضل تغطية وجهه براحتي يديه ويتأمل "الفيلا" المقابلة. حينما ينفتح الباب، عند خروج أهلها أو دخولهم، يتلذّذ باختلاس النظر والاستمتاع بجزء من الحديقة المزينة بالأزهار المتفتحة التي كان المعلم الفرنسي يعتني بها بخشوع. لا يتذكر أنه لعب يوماً في حديقة. في منزل أهله، ذلك الكوخ المتسخ حيث تقتات عائلته، توجد قطعة أرض صغيرة يغرس فيها أبوه البطاطا والبصل لبيعها في السوق. ولكن لا أحد يشتريها منه، فيضطر إلى أكلها يومياً كي يدّخر قليلاً من المال للأيام الصعبة وما أكثرها. لم يكن تاج يسمح لنفسه بالركض مع الأطفال الآخرين في الحقول أو في الساحة العمومية. لم يكن مرغوباً فيه من قبل أي طرف.

عادة كان الأطفال يطردونه بالحجارة والشتائم البذيئة. لذلك كان يأتي إلى الرصيف المقابل للفناء 24 لينسى متاعبه. في ذلك العمر المبكّر، بدأ يحلم بحديقة تكون ملكاً له دون غيره، حيث يمكنه أن يتملّص من فظاظة أصدقائه الأطفال وإهاناتهم. إن والد موريس هو الذي شيّد تلك الفيلاّ. شيّدها حجراً فوق حجر، كما لو تعلّق الأمر بنُصْب تذكاري. كان المنزل جميلاً، بواجهته المرصعة بأحجار زرقاء، وسقفه الأردوازي ومدخله الأنيق.

الآن، ها هو حلمه يتحقق. منزل الحاج موريس ملك له، ملك له وحده.

وقف تاج عصمان على رأس جبل الخوف يهيمن على العالم. يعرض السهل عند قدميه غنائم تلاله وأوديته، حقوله وبساتينه وآفاقه الرمادية. كان تاج يعتقد أنه يكفي مدّ يديه ليقطفها جميعاً. ولكن الذي جعل وجهه يشع، ليس منزل موريس وليست النظرة الرائعة الممتدة عبر السهل. أخيراً، رأى تاج أن صبره بَدأ يجني الثمار: لقد عيّنته قيادة الجماعة المسلحة أميراً. سَيَسود المنطقة بأسرها دون أن يقاسمه ذلك أحد.

لقد تمّ عزل قادة هلال من منصبه. كان فصيح اللسان، مُنْشغلاً بأساليب تعبيره أكثر من تغيرات الوضعية العسكرية لجماعته. اتضح أن الأفغاني السابق كان مكافحاً رديئاً كما كان أيضاً قائد رجال بائساً. أمام

رخاوة مبادراته التي قامت بوشايتها رسالة مجهولة، أرسلت القيادة أحد رجالها ليتحرى الوضع ويقف على حجم الثغرات الجهادية في المكان عينه. استقبله قادة بترحيب مبالغ فيه، وصرعه بخطبه المملة. خلال إقامة المبعوث الخاص، امتنع تاج عن إنجاز أي عملية باهرة كي تتلاءم الوضعية مع ما جاء في التقرير... بعد أسبوع تمّ عزل قادة هلال من منصبه. قال تاج:

- أكيد أنهم يفكرون في ترقيتك.

صدّقه الأفغاني السابق من فرط تعاظمه. فوعد برعايته عند أعضاء مجلس الشورى.

قبل أن يغادر أعضاء كتيبته، أصرّ قادة على إلقاء خطاب في مجاهديه ويحظى ثانية بتقبيل الرأس مثلما فعل الشيخ عباس يوم ذهابه إلى أفغانستان. قال له تاج:

- سوف لن أتركك تذهب هكذا. لقد وعدتك بشيء وسأفي بوعدي.

رضي قادة بالبقاء أياماً أخرى وسط كتيبته. من الصباح إلى المساء، كان يجلس داخل خيمة ويجمع حوله مجموعة من الرجال ليطلق العنان لهذياناته.

ضَحِك تاج طويلاً من نبيّ الخردة هذا الذي لم يكن إلا لاعباً حقيراً في رقعة مسرح طموحاته والذي لن يتهرب من القدر الذي يخصّص للأشياء المستهلكة.

فاجأ يوسف تاجاً بقوله:

- أراك الآن تبتسم للملائكة يا تاج.

- أمير تاج الدين.

- عفواً، أمير تاج الدين... هل ترى اليوم الموعود آتياً في الأفق؟

- لا ينبغي انتظار مجيء الأيام إلينا، بل يجب أن نسبق الأحداث، أن نقوم بفتح مبين للأيام، أن نروّضها لمصلحتنا. الرجال هم الذين يركبون ويفككون الأحداث، يشيدون التاريخ على مقاسهم. (مرّر أصابعه على شعره الطويل، قطّب عينيه كما لو أنه يريد رؤية شيء ما في الأفق البعيد). قبل لحظات حينما كنت أحدق في السهل، جاءتني رؤيا.

- أتمنى أن تكون سعيدة.

ردّ تاج بعصبية:

- أكره هذه اللفظة. ما معنى التمني؟ ما معنى التمني؟

- قلتها هكذا، دون تفكير.

- لا تطلق الكلام على عواهنه. لا ينبغي أن نتلفظ بكلام لا نفكر فيه جيداً، خاصة حينما نكون على وشك الانتصار على تحدّ.

ارتبك يوسف قليلاً، لم يكن ينتظر مثل هذا الردّ من الأمير الجديد للكتيبة. هل هو امتحان؟ خفض رأسه وباشر بملامسة ماسورة بندقيته. استعاد تاج هدوءه

بسرعة. لامس لحْيته بحركة صوفية، ثم جال ببصره فوق السهل وقال بنبرة تصالح:

- إن الأمل يفترض أننا ننتظر حدوث معجزة، يا يوسف. والمعجزات نحثّها، نتسبب في حدوثها. إن مَن يريد الوصول لا يعرف للانتظار معنى. الزمن لا ينتظر. الزمن لا يمنح مفاتيحه إلا للعدائين الصامدين. في سباق الماراتون الذي يفرضه علينا الطواغيت ـ إنها فعلاً حرب طويلة الأمد ـ علينا أن نحسب حساباً دقيقاً لكل خطوة نَخْطوها. إذا كان الحظ يسعفنا أحياناً، فإنه لا يملك الأفكار النيرة. وحدهم العداءون الصامدون يملكون الرؤيا الشفافة. لهذا يتمكنون من قلب الموازين، من مفاجأة العالم. صَحيح أننا نحتاج أحياناً إلى دفع من حظ بسيط. ولكن القدر لا يمنح الفرص إلا للوصوليين النابهين. إنّ الحظ نيزك يجب مطاردته، بل إيقافه في المكان المناسب. إذا مرّ أمام أنوفنا دون أن نمسك به، سنفقد الوجاهة إلى الأبد.

- إننا نمسك بطرف الذيل. البلد راكع. لم يبق لنا إلا أن نُسقطه بالضربة القاضية. هل تظن أن سيفنا طويل بحيث يمكن لطَعْنته أن تمسه في القلب؟

- هل تشكّ في هذا؟

- إذاً ماذا ننتظر؟

- نَحن لا ننتظر. نستمد طاقتنا من آخر حشرجات

احتضاره. لا يتعلق الأمر بالقضاء عليه يا يوسف، ولكن بمعاقبته، بجرّه في الوحل كي نُحكم عليه قبضتنا نهائياً. إن العبد الخاضع هو الذي نَستَولي عليه بالقوة. إن العبد الذي نشتريه أو نتسلمه هدية ليس أهْل ثقة. سيحتج دوماً على سلطتنا عليه.

شدّ قبضة يده، هزّها بقوة وأشهرها في وجه العالم:

- كل شيء يوجد هنا يا يوسف. كل أسرار العالم توجد في هذا الضمّ. يرتخي إصبع واحد ويهرب منا العالم بأسره.

رغم الساعة المتأخرة، لم تطفئ غاشيمات جميع أضوائها. يرتفع ضجيج الأطفال من داخل البيوت. من حين لآخر، يُسمع رنين الأواني المنزلية. البدر في تمامه وتصل الرؤية الشفافة إلى عمق الحدائق. تحشر مجموعة من الكلاب الضالة أنوفها في القاذورات المتراكمة في زوايا الأزقة. فجأة توقفت بعض الحيوانات عن شمّ الفضلات، استرقت السمع، ثمّ ركضت مسرعة باتجاه الوادي، يتبعها جراران وشاحنة صغيرة غاصة برجال ملتحين وبثياب متسخة.

عند سماع هدير المحركات، أطلت أشباح من النوافذ ثم أسرعت إلى غلق مصاريعها. في لمح البصر، غرقت القرية في ظلمة حالكة.

احتلت المَركبات الثلاث ساحة القرية. وطئت قدما تاج عصمان الأرض، وأشار إلى رجاله بالانتشار حوله. انقسم حوالى خمسين رجلاً مدجّجين بالأسلحة والسيوف إلى مجموعتين. اتجهت الأولى نحو منزل رئيس البلدية، وعلى رأسها تاج. أما الثانية بقيادة يوسف، فاتخذت طريق المسجد متجهة نحو بيت سيدهم حيث يوجد زان جاثماً على صخرة يحرس الضواحي كما الكاسر.

انتهت والدة علال من الصلاة. لا تزال متربّعة على الحصير وتتمتم بآيات قرآنية. تتبادل ابنتاها أطراف الحديث في زاوية من الغرفة، وهما تتصفّحان مجلة قديمة. قالت إحداهما:

- أسمع طرقاً على الباب.

تفحّصت الثانية الساعة المعلقة على الجدار.

- من الطارق في هذه الساعة المتأخرة؟

سلمت الأم، وقفت، لفّت الحصير ووضعته على مقعد مبطن.

- سأذهب لأرى.

قالت الفتاة خائفة:

- لا.

- على كل حال، لو أرادوا لنا الضرر، لا أعرف كيف يمكن أن نتجنب ذلك. الباب لن يقاوم طويلاً.

خرجت الأم إلى الفناء.

- من الطارق؟

- زان، خالة عائشة. علال يبعث إليكم قليلاً من المال.

- أدخله تحت الباب.

- لا أستطيع. يوجد معي طرد أيضاً.

التحقت الفتاتان بأمهما في الفناء. كانتا شاحبتين من فرط الرعب. تشدّ الواحدة أختها من الخصر. تردّدت الأم، ثمّ جذبت مزلاج الغلق. ابتسم زان قبل أن يريها راحتي يديه الفارغتين.

- خدَعْتك أيتها العجوز. ليس لدي شيء لك، ولكن أصدقائي يُصرّون على لقائك.

دفعه يوسف وأمسك العجوز من شعرها وأسقطها أرضاً. دون أن يترك لها الوقت لتفهم ما يحدث لها، أشهر سيفه وقطع رأسها.

في الجهة الأخرى من القرية، يناور جرار باتجاه الخلف، مُحطّماً سياج إقامة رئيس البلدية. انطلقت رصاصة من الطابق العلوي. تلقى أحد المعتدين رصاصة وسقط أرضاً وهو يُطلق شتيمة بذيئة. فرقعت الرصاصات باتجاه النافذة، مكسّرة الزجاج في انفجار حاد. خرّب الجرار الحديقة وانقضّ على الباب الداخلي. تسلّق تاج جداراً منخفضاً كي يمر خلف البناية، رمى قنبلة يدوية داخل غرفة. انبثقت حمّة نيران

وغبار من فتحة النافذة. استغل رهط من الإرهابيين الفرصة كي يصعدوا إلى الشرفة، فجروا باباً آخر وولجوا متتابعين داخل المنزل. تكاثرت طقطقات الرصاص، مؤجِّجة صيحات النساء والأطفال. سقط رئيس البلدية، خرق الرصاص كتفيه وساقيه. حاول الزحف نحو بندقيته. منعه إسماعيل عيش بركل رقبته بحذائه الخشن.

- بطولتك تنتهي هنا يا ابن الفاجرة. أطلقت رصاصتك. جاء دورنا الآن.

أسرع الإرهابيون باتجاه الطابق السفلي حيث اجتمع الأطفال والنساء. حاولت والدة رئيس البلدية، الكفيفة، تهدئة ذويها، وهي تمدّ ذراعيها إلى الأمام في الفراغ. أطلق تاج رصاصة في رأسها، بحركة لامبالية، دون حتى أن ينظر إليها. سقطت العجوز كجذع شجرة، ساقية الأرضية بدمها. حاولت سادة أن تحمي إخوتها الصغار بضمّهم إليها. أمْسكها تاج من الرقبة وأخرجها إلى الفناء. قال إسماعيل عيش موجّهاً كلامه إلى رئيس البلدية الممدّد على الأرض:

- انظر إلى عائلتك. يقال إن الشقاء الأكبر هو العيش بعد موت الأبناء. في هذه الليلة، سَتعيش ما هو أرعب من هذا بكثير. ستكون شاهداً على قتلهم. سنذبحهم أمام عينيك، الواحد بعد الآخر. ثم نضاجع

زوجتك، ثمّ نفقأ عينيها، نقلع أظفارها وجلد ظهرها، نقطع نهديها ثم نمزّقها بمنشار حديدي. وحينما ننهي عملنا مع أفراد عائلتك، سأرش شخصياً جسدك بالبنزين وأشعل فيه النار بابتهاج لا مثيل له. أردت اللعب بالنار، سآتيك بنار جهنم.

ثم مال برأسه في ضحكة مهولة.

انسحب يوسف وجماعته من منزل سيدهم والتحقوا بتاج حول إقامة رئيس البلدية. انْتَظَر زان أن يراهم يختفون خلف المسجد كي يعود إلى الفناء الغارق في الدماء. تَخَطّى جسد العجوز عائشة المبقور، قرفص قرب جثتي الفتاتين، رفع فستان إحداهما وبدأ ينزع حزام سرواله.

22

لم تعرف مقبرة غاشيمات البتة مشيّعين بهذا العدد الغفير منذ انفجار الأحداث الدموية. أصَرّ حَشْدٌ غير متوقع أن يرافق الضحايا إلى مثواهم الأخير. جاءَ الناس من كل حدب وصوب، من مولاي نعيم، ومن القرى البعيدة في المنطقة، الأفواه ثقيلة من الغضب والتقزّز. كان علال سيدهم يقف وسط السلطات الإدارية، شاحباً ولكنه وقور. مُدّدت الجثث الإحدى عشرة قُرب قبورها، مغطاة بأزر. تجنّد جميع رجال القرية كي يتمكنوا من إخراج الجثث الثماني المفحمة لعائلة رئيس البلدية من تحت الأنقاض: رجل وامرأتان وخمسة أطفال، اثنان منهما رضيعان. استُنجد بطبيب جراح من المدينة ليعيد جَمع الأطراف المبتورة لأفراد عائلة سيدهم، الأم وابنتيها.

قال إمام مولاي نعيم للحشد المستنكر:

- هل يُمكن لأحد أن يقول لي لماذا قُتلت هذه

المخلوقات الضعيفة بهذه الوحشية؟... سأقول لكم لماذا: لأننا لم نعرف كيف نحميها. النتيجة أننا آثمون مثل القتلة. سنسلّم الجثث للتراب، ولكن أرواحها ستبقى معلقة بأذهاننا لتنغّص أيامنا. ذلك أننا لسنا جديرين بالحياة بعد الذي حدث لهؤلاء الأبرياء الضعفاء. لقد سلكنا أنذل الطرق. أمام هول الجرائم، نكتفي بإظهار الحزن في الصباح، ونسارع في المساء إلى نفض أيدينا من المسؤولية. وسيأتي دورنا ذات ليلة. حينئذ فقط، سندرك لماذا تُرهب جماعة من الكلاب الضالة أمّة بأسرها، لماذا يجب أن يموت الأطفال والشيوخ والنساء والمعوقون والرضّع كل يوم، ويجب على الأحياء أن يدفنوهم في الذل والمهانة والخوف.

بعد مراسم الدفن، انسحب علال بمفرده جانباً مع جعفر. بقي الاثنان واقفَين على كومة تراب ينظران بعيون شاردة إلى تفرق الحشد وابتعاد السيارات وسط غيوم من الغبار. تأخّر الشيوخ عند مدخل المقبرة، الوجوه مصفرة، الخدود مرتعدة من الغيظ والعجز. عند أسفل السهل يتلألأ القيظ مثل المستنقع. قرفص علال ثم جلس على صخرة، شدّ رأسه بكلتا يديه وأطلق صراخاً ليس بمقدور الجبل ولا الأفق الممتد أمامه أن يرده.

قام زان مع مجموعة من المتطوّعين بغسل فناء

منزل سيدهم بكميات كبيرة من الماء. تدفّقت سواقي حمراء عبر الزقاق. بواسطة مكنسة، انشغل زان بتنظيف اللطخات المتورمة التي جفت على الأرضية المبلطة. عندما أحس باقتراب علال، توقف عن الحك وقال بصوت مرتفع:

- على كل حال، سوف لن يدخلوا الجنّة. سيأتي اليوم الذي يَدفعون فيه ثمن وحشيتهم غالياً. مسكينة خالتي عائشة، مَن كان يظن أنه يوجد شخص في القرية سيمسها بسوء. شيء مُقرف حقاً. امْرأة خَيِّرة، مُتحفظة، ضامرة الجسد... (ثم تظاهر باكتشاف علال خلفه): اسمح لي علال، الألم أكثر مما يحتمله المرء. لا يمكن لأي رجل عاقل أن يصمت أمام هذه الحقارة. أمك كانت قديسة. كانت تعزّني كثيراً.

شكره علال بحركة يد والتحق بأصدقائه داخل البيت.

انفجر مراد غاضباً:

- الخطأ خَطأنا. في القرى المجاورة، ينتظم أهلها ويطالبون بالأسلحة للدفاع عن ممتلكاتهم وأعراضهم، ونحن نكتفي بالشكوى والعويل كالنساء. لأنّ أغلبية الإرهابيين من قريتنا، فتصورنا أنهم لن يتعرّضوا لنا بسوء. وها هي النتيجة. وما هي إلا البداية. سيأتون مرة أخرى لقتل أشقياء آخَرين وذبحهم.

قال الهواري، رجل قصير القامة، نحيف الجسم، وقد فقد إصبعين في ورشة نجارة، موافقاً:

- هذا أكيد. إن أولاد الكلب لا يتردّدون أمام أية بشاعة.

- إنهم يقتلون الأطفال والرضّع.

- لقد قتلوا الله داخلهم. إن الحافِز الوحيد الذي يحرّكهم هو الدم الذي يجري في عروقنا. سيهاجمون المحابر لتفريغها من حبرها.

قال مراد:

- من فضلكم، لنبقَ في صلب الموضوع. السؤال المطروح علينا: متى سنشكّل جماعتنا للدفاع الذاتي؟

نزل صمت صاعق على الغرفة. التفتت العيون، انحنت الرقاب، تاهت الأيدي على الركب. نهض شخص وهَمّ بغلق النافذة. اقترح آخر تخليص الطاولة من الأواني المتسخة. أمسكه مراد من الذراع وأرغمه على النظر إليه صراحة:

- لم تُضرم النار في البيت يا الطاهر. اترك الصُحون والكؤوس في مكانها. هل خفت أن تنفجر على وجوهنا؟

شعر الطاهر بالانزعاج. تلقى الضمّ على كتفه بغضب مكتوم.

وجّه مراد كلامه إلى الآخرين:

- ماذا دهاكم أيها الأصدقاء؟ هل تلفظت بفاحشة أم أنكم ابتلعتم ألسنتكم؟

دفع الطاهر باستخفاف باتجاه الحائط. امتدّت سبابته، وخطّت قوساً متهماً.

- تبولون في سراويلكم كلما حانت ساعة الحسم. أتريدون رأيي صراحة: أنتم جبناء، لستم أكثر من جبناء منافقين وأشقياء.

احتج بَنّاء شاب بصوت منخفض:

- ليس صحيحاً ما تقول.

- وأين هو الصَحّ؟

- للجدران آذان صاغية يا مراد. لا تظن أن الذي يبتسم لك هو بالضرورة إلى جانبك. غاشيمات غاصّة بالأفاعي.

تدخّل زان موافقاً بحيوية:

- أنت محق. لسنا جُبناء وإنما تنقصنا الثقة فيما بيننا، هذا كل ما في الأمر.

ضرب مراد الأرض بقبضة يده.

- عُذر واهٍ للتهرب من المسؤولية، ولم يعد مُقنعاً. ليس أمامَنا اختيار آخر. إمّا أن نرفع السلاح ضد هؤلاء الوحوش، وإما أن يبحث كل واحد عن حلّ منفرد لنفسه. إذا كان هناك خونة ـ وبالفعل يوجد خونة بيننا ـ فإنّنا نعرفهم جميعاً. لم يبق لنا إلا الوشاية بهم إلى

قوات الأمن. لنخلّص قريتنا من الخونة. لنطارد هؤلاء الحقيرين. لنحمِ عائلاتنا وممتلكاتنا وأصدقاءنا وكرامتنا وأعراضنا. أعْرف أن الكثير منكم يتفقون مع اقتراحي، يفكرون مثلي، بل ومستعدون لرفع السلاح فوراً. إن نقص التواصل بيننا هو الذي يجعلنا مترددين. لذلك، فلنكسّر جدار الصمت والخوف. لنكشف مشروعنا للملأ. في مولاي نعيم، هناك اثنا عشر رجلاً يملكون بنادق صيد. اتفقنا على تشكيل جماعة الدفاع الذاتي. إذا وجد متطوعون في غاشيمات، إنها الفرصة المناسبة للالتحاق بنا. وفوراً. رَحّال التائب موافق على مساعدتنا. يملك تجربة ويعرف المنطقة الجبلية جيداً وأثق به ثقة كلية.

من جديد، عاد الصمت ليعذّب الأكتاف والرقاب. بعد تأمل طويل، صاح زان:

- أنا متطوّع.

لم تُدخل حماسته ارتخاء في الجوّ. اتّجهت الأنظار إلى علال، ولكنها انسحبت قبل حتى أن تنحط على الوجه الكئيب. سعل هواري في قبضة يده كي يخرج بقية طعام من حلقه. قال:

- أنا أملك بندقيتَي صيد في البيت.

قال جاره بصوت مندفع:

- اترك لي واحدة جانباً.

قال شيخ واقف قرب الباب:

- أنا معك يا مراد.

الواحدة بعد الأخرى، ارتفعت الأيدي باقتناع فاتر. بدأ مراد يعدّهم ويحرّض المتردّدين على اتّخاذ القرار الفاصل.

- اثنا عشر... إننا أربعة وعشرون في المجموع. هذا شيء جميل وأهنئكم على هذه المبادرة الشجاعة. ينبغي طرق الحديد ما دام ساخناً. ابتداء من هذا المساء، سنجتمع للنظر في كيفية تشكيل جماعة فاعلة للدفاع الذاتي. لقد تحدثت مع الضابط المسؤول لزيتونة. سيمدّنا بالأسلحة الأوتوماتيكية ويقدّم لنا المساعدات التي نَحْن بحاجة إليها. لسْنا وحيدين يا إخواني. سنخلّص قرانا من الورم الإرهابي، هذا وعد مني.

داخل الغرفة، أيقظت فجأة رطوبة العتمة رجفات النخاع في الظهور.

سوّت والدة عصمان خمارها بحركة واهنة. في الرابعة والستين من العمر، ليست إلا خرقة بوجه مغضّن ونظرة محتضرة. إنها زوجة عيسى العار، وقاسمته الإهانات والأحزان بصبر وغيظ كظيم. في الوقت الذي كان الحارس يسارع بإرادته إلى الانبطاح أمام الغير، واصلت تسيير شؤون العائلة البائسة بصرامة غير متوقعة. لم يثنِ البؤس عزيمتها ولا تقهقر وضع

عائلتها. كانت خادمة حقيرة، لم يتوانَ أهل القرية في استغلالها والهُزْء منها. إنها أشبه بشبح يجر نعليه وإرثه الوسخ بين أزقة غاشيمات العدوانية، فيكفي أن تعود إلى منزلها كي تغيّر شخصيتها وتتحوّل إلى سيدة بيت حقيقية. تمارس على ذريتها سلطة لا تقهر. تطلق الأوامر كالرصاص وقراراتها لا ترد. لا أحد يستطيع مواجهتها في البيت. كان تاج نفسه يطيعها بلا أدنى نقاش ولا حتى رفع البصر. فكان يكن لها احتراماً لا نظير له. أما النساء اللائي يُشغِّلنها مقابل بعض الدينارات القليلة فإنهن يمقتنها. يَجدْن فيها شيئاً من عزّة النفس التي تتملص من احتقارهن، فينتابهن الشك في صبرها القوي، الكثيف، القلق، المخيف مثل المياه الراكدة. تحني أم عصمان ظهرها دون أن تعطي الإحساس بأنها تذل نفسها، تتجرّع الشتائم كما يفعل الورق النشاف مع لطخات الحبر، وحينما يحدث لها أن ترفع بصرها نحو المعتدي، عند حدوث الإهانة، لا تقدر أحقد العيون على مواجهة عيونها. تكرهها النساء بسبب هذا العناد الصامت. تنتمي أم عصمان إلى هذا النوع من المنبوذين الذين، بعد أن يُرمَوا إلى قاع المجتمع يجدون دائماً طريقة للصعود إلى السطح ليوسوسوا في الصدور. يشعر الناس إزاءَها بالتقزّز والخوف. إنها أَشْبَه بالأفعى مثلما يحلو للجميع أن يسميها.

سألت عيسى المنهار قرب صَحنه:

- لماذا لا تأكل؟

- ما هو السبب في رأيك؟

جلست أم عصمان بصمت على مقعد صغير، قبالة زوجها. جال بصرها الذابل هنا وهناك قبل أن تثبته على بصر عيسى.

- أنا متعبة.

- اذهبي للنوم.

- أسْرِع بإنهاء طعامك كي أنظف المائدة وأغسل الأواني.

- لست جائعاً.

- أنت لم تأكل منذ الصباح.

انزعج عيسى من صوت زوجته الهامس. تحرّك فكاه في وجهه المنهزم وتقلّصت قبضتا يديه. قال:

- قام تاج بحماقة لا تغتفر حين هاجم القرية بتلك الطريقة.

- لماذا ؟

- الآن أصبح جميعُ من في القرية أعداء لنا.

- ومتى كانوا أصدقاء لك.

أحس عيسى بتقزز في ابتسامة زوجته الجامدة.

- إنك متعبة فعلاً.

- بسبب رؤيتك في هذه الحالة.

- وماذا تريدين مني أن أفعَل؟ أن أرقص زهواً، أن أخرج إلى الشارع لأخبر القرية بإمارة ابني؟

- إن تاج يعرف ماذا يفعل.

- هذا رأيك أنت...

ضمّت الأم يَديها في تجويف فستانها. في لحظة برق، تلألأت عيناها بنار غريبة، قبيحة- . نعم، إنّه رأيي وهو الرأي السديد.

- بل هي مبادرة شقية. إن الهجوم على غاشيمات حيث يعيش والداه حماقة لا تغتفر. هكذا يعرّضنا إلى الرجم. لا أستطيع الخروج من منزلي الآن.

- سوف لن يحدث لنا شيء. ابننا قوي. إنّه أمير المنطقة كلها، وذراعه طويلة، يمكن أن يضرب بها من يريد وفي أي مكان يريد. وهذا يعرفه الناس جيداً. وإلا كانوا مَزَّقونا إرباً إرباً قبل حتى أن يذهَبوا إلى المقبرة لدفن رئيس البلدية وعائلته الخائنة.

لم يقتنع عيسى. حرّك رأسه بطريقة منزعجة.

- لا ، ليس غاشيمات. إنه انتحار، جنون...

- أنا من طلبت إليه ذلك.

رفع عيسى رأسه تجاه زوجته بفظاظة، فاتحاً عينيه:

- ماذا تقولين؟

- لقد سمعت جيداً.

أصيب عيسى بصدمة صاعقة. تَحت وقع المفاجأة،

قضى وقتاً طويلاً قبل أن يفهم. شحب وجهه الواهن وتضاعف الازرقاق الدائري حول عينيه. ابتلع ريقه، جفّ حلقه، أصبح يتنفس بصعوبة. قال متنهداً:

- هذا مستحيل. لا يمكن أن تفعلي شيئاً مثل هذا. أرفض تصديقك.

- لم أطلب إليك شيئاً.

صعقه صوت زوجته وأصبح دمه يغلي. بادر بحركة كما لو أنه يهمّ بطرد ذبابة، ولكن نظرة رفيقته الكابية لم تترك له أي مجال للشك.

- أنتِ ؟...

قالت بصوت لا يكاد يسمع:

- إنّهم لا يساوون شيئاً. لا يستحقّون العيش. لا يعرفون معنى الحياة.

- ماذا تقولين أيتها العجوز المجنونة؟

- كانوا يتصوّرون أنفسهم أسياداً. يتصرفون في الأشقياء مثلما يحلو لهم. لا يحترمون الفقراء كما لا يحترمون أنْفسهم. لا يعرفون إلا السرقة والخيانة واحتقار الغير. إنهم نهمون لا يشبعون. شراهتهم لا حدود لها، وغطرستهم أيضاً. لقد أذاقني الأمرين، هؤلاء الكلاب. لم أنسَ شيئاً، ولا أدنى شتيمة. كما لم أسمح لهم بشيء أيضاً. كل شيء مسجل هنا (فأشارت بإصبع إلى صدغها). ولكنني لم أيأس لحظة واحدة.

ربيت تاج كي ينتقم لي. وبعد أن حانت الفرصة، لم أترَدّد لحظة واحدة.

دفع عيسى الطاولة ونهض. أمام برودة زوجته، انتابه رعب مهول إلى جانب تقززه.

- أذَّكركِ بأن أطفالاً قد قُتلوا.

- لم يعرف أولادي هذا الحظ. كانوا يموتون كل يوم، في زاوية كل زقاق، في أي مكان يلجأون إليه، يُطردون، يُهانون، يُضربون، وبعد ذلك يتم إحياؤهم من جديد ليُقدَّموا للجلادين... لا يُمكنك أن تفهم حَجم ذلنا، أنا وأولادي، يا عيسى. أنتَ سلّمْت أسلحتك بسرعة ورضيتَ بحالك المزري. كنتَ تعتقد أن المُعاملة السيئة التي كانوا يعاملونك بها شرعية. لم يكن في مقدورك أن ترى شيئاً لأن رأسك كان دوماً منخفضاً وبصرك لا يغادر التراب. أما أنا فلم أسلّم أسلحتي. احتفظت بها إلى هذا اليوم. مَن يجْرح البهيمة، فعليه أن يُجهز عليها. إنهم لم يفعلوا. فتباً لهم...

نهضت بدورها. ببطء، أمسكها عيسى من الكتفين، سحقها ضد الحائط، مسعوراً.

- أنت مجنونة.

- إنك تضرني.

استعاد عيسى هدوءه. هزّ رأسه مراراً:

- أرفض تصديقك.

- هذه ليست مشكلتي.

من جديد، مدّ عيسى يديه باتجاه زوجته. ولكن هذه المرة لم تلمس أصابِعه كتفي الأم. بقيت عالقة في الفراغ، كما المخالب المجمدة. دفعته أم عصمان، أخذت الصينية وعادت إلى المطبخ. تبعها عيسى بالنظر، مُضطرباً، غير مصدِّق، فانهار على مقعد مبطن.

اصْطفق صوت:

- ليست نهاية العالم.

التفت عيسى. كان زان القزم ينظر إليه بعين جامحة، وهو يقف عند عتبة الباب.

- كيف دخلت إلى هنا؟

مطّ زان شفتيه منزعجاً:

- يُطرح عليّ دائماً السؤال نفسه: كيف دخلت؟ كما لو أن الأمر فيه سحر. أنا لا أشق الأسوار. طرقت الباب، أدرت المزلاج ودخلت. أظن أن الجميع يستخدمون هذه الطريقة السهلة...

تفحّص عيسى الساعة على شاشة التلفزيون، وأدرك أنه غفا بعض الدقائق. حكّ رقبته وواجه القزم.

- ماذا تريد؟ الساعة تقترب من العاشرة ليلاً وأنا أريد أن أنام.

- جئت أوقظك من النوم. ليس الوقت مناسباً، خاصة هذه الليلة يا شيخ. عدت تواً من مولاي نعيم. حضرت اجتماعاً رهيباً. إن مراد وعلال بصدد تشكيل

جماعة للدفاع الذاتي. ابتداء من الغد، سنسمع أخباراً عن أفعالهم. لقد قرّروا الذهاب للبحث عن سارة. لهم أسلحة ومصممون على إنقاذها.

- كم عددهم؟

- اثنان وعشرون.

- سيسحقهم تاج سحقاً.

- ربّما ولكن الشرارة انطلقت. قريباً، سيتبع جميع الشبان طريقهم، وبعد أقل من أسبوع سيواجهنا جيش من "الباتريوت". إنهم يُعدون قوائم ليطلبوا الأسلحة. رأيت بعيني ممثلاً عن السلطة العسكرية يقدّم لهم استمارات كي يكوّنوا ملفات الحصول على الأسلحة. دار الحديث أيضاً حول احتمال انتشار مخيم للحرس البلدي في الضاحية. لا أقول هذا الكلام كي أدفع بك إلى الخوف، ولكن لو كنت في مكانك، لبدأت فوراً حزم أمتعتي استعداداً للرحيل.

نظر عيسى إلى السقف كي يفكّر. اسْتَغل زان الفرصة ليهجم على المقعد المبطن، ويجلس باسترخاء بين وسادتين، متربعاً.

- يوجد شيء آخر... الناس هنا ليسوا راضِين عما وقع. درت في المقاهي. وأؤكد لك أن أذني تطن الآن من هول ما سمعت. قام تاج بحماقة كبيرة. حين كان يشتغل بعيداً، لم يكن أحد يهتمّ بالموضوع. ولكنه أخطأ حينما تعرّض لغاشيمات ...

- كفّ عن الدوران حول الإناء.

- مُوافق. سأذهب إلى صلب الموضوع: يريدون تصفية عائلتك.

مطّ عيسى شفتيه في تكشيرة مريبة.

- هذا خبر مهم.

- في المقهى، لا تجري على ألسنة الناس إلا كلمة واحدة: الثأر. وكل واحد يقترح طريقته. البعض مع الذبح، والبعض الثاني مع الحرق، ولكن الجميع متفقون على النتيجة: التصفية الجسدية، لك ولأفراد عائلتك. أؤكد لك أنهم هائجون. ولا أستغرب إنْ حدث لمنزلك شيء بعد ساعة أو اثنتين.

قال عيسى فاقداً أعصابه:

- ليتهم يجيئون الآن؟ ماذا ينتظرون؟ أن أقوم بدعوتهم؟

- يا شيخ، ما الفائدة من الغضب؟ أسرع إلى جمع حقائبك والابتعاد من هنا فوراً. في غاشيمات وفي مولاي نعيم، لا يفكر الناس إلا في كيفية بقر بطونكم. عَدّة، صديقك، موافق على شنقكم عند مدخل القرية. وكذلك بودُوارة، اقترح أن ينسج الحبل بيديه. دارت الريح يا عيسى الشقي.

- وأنت يا طائر النحس، من أي اتجاه؟ وأنا أسمعك، أحسّ كأنما تتلذّذ بشقائي.

- لقد عرّضت نفسي لخطر كبير حينما أتيت إلى

دارك لأخبرك بما يقع، هذا لا يكفيك؟ أنا متأكّد أنه يوجد على الأقل ثلاثة أو أربعة رجال في الضواحي لمراقبة تحركاتك، ربّما يُعدّون خطّة لصلبك. ولم يمنعني ذلك من المجيء إلى بيتك. ماذا تريدني أن أفعل كي أحدّد مَوقفي؟ أنا لن أتخلى عن أصدقائي أبداً .

- هذا الكلام قُله لغيري يا زان. لا تتصور أنني سأتأثر بما تقوله لي. أنا وأنت من جنس واحد: لا توجد شجاعة خارقة في شرايينا. قل بالذات ماذا تخفي داخل رأسك ولننهِ الموضوع من أساسه.

تظاهر زان بالغضب. وقف بقفزة خفيفة، ولكن ليس فيها من الفظاظة كي يبهر عيسى.

- أسرع في مغادرة القرية يا شيخ.

وبعد ذلك خرج متظاهراً بالحزن.

في هذه الليلة، لم يذهب زان إلى بيته. اختفى خلف أجمة تين الصبار ولم تغادر عيناه المنزل السابق لحاج موريس. بسرعة، سمع هرجاً ومرجاً لدى عائلة عصمان. وكي لا يفوته شيء، تسلق أعلى شجرة بحيث يمكنه رؤية ما يحدث في الفناء. رأى أطفال عيسى يروحون ويجيئون داخل الساحة الصغيرة، محمَّلين بالصرر والعلب، يكدسون حمولاتهم داخل شاحنة صغيرة في هَيَجان مسعور ولكنه خافت. لا صوت ولا صُراخ. وبعدما انتهى الشحن، خرج عيسى بدوره حاملاً

حقيبتَين صغيرتَين في طرف الذراعين. حطّ واحدة عند مدخل المنزل وذهب ليضع الثانية بلطف وهدوء في قمرة الشاحنة. وبعد ذلك، بعث ابنه الأصغر ليأتي بعتّو الزبال.

بالنسبة لأهل القرية، إن عتّو شيخ لا قيمة له ولا يمكنه أن يضرّ نملة، رجل مسكين ضئيل ضآلة الظل الذي يجره خلفه طوال اليوم. ليس لأنه محل احتقار، وإنما لأن لا أحد يعيره أدنى اهتمام. الحقيقة أن عتّو اكتشف لنفسه هواية منذ حلول الإرهاب. إنّه المكلف بإيصال ما يجمعه المناصرون من مال وما يبتزونه بالقوة من المواطنين إلى الجماعات المسلحة في الجبال. بفضل كتمانه ووضعه الهامشي، يمكنه الذهاب إلى الجبال في ساعات مستحيلة دون أن يثير الانتباه.

عاد زان إلى مخبئه خلف تين الصبار يواصل حراسته. وصل عتّو بعد لحظات قصيرة، ناعساً، وشعره متشابك. قال له عيسى:

- هذه أموال، ستوصلها إلى تاج. تدبّر أمرك كي تُسلِّمها له قبل نهاية الأسبوع. ثمّ قل له بأننا ذهبنا عند لويزة. سيفهم.

- سترحلون؟

- لدينا جميع الأسباب التي تجعلنا لا نتأخر في الضواحي.

مسح عتّو أنفه بطرف عباءته. انتبه أنه في سرعته قد

نسي نظارتيه في البيت. ولكن الذي يقلقه أكثر هو الرحيل غير المنتظر لحلفائه. تأمل الشاحنة المعبأة بالأمتعة وأفراد العائلة والمنزل المهجور والحقيبة عند قدميه. قال عيسى مطمئناً:

- لا تخشَ شيئاً. لا أحد على علم بما يحدث بيننا.

لم يلح عتّو. رفع الحقيبة وهمّ بالانسحاب. أمسكه عيسى من الذراع:

- أنت رجل خيِّر يا عتّو. إن تاج يعزّك كثيراً.

- إنها حماية كبيرة.

- لن نُهملك، أقسم لك. بمجرد أن أستقر، سأبعث شخْصاً يوصلك إلينا.

خفض عتّو رأسه، حرك أصابع قدميه داخل الصندل المطاطي. قال مكتئباً:

- بوف... أتعرف بأنني، في عمري هذا...

- اعتنِ بنفسك.

رفع عتّو رأسه، لقد حيّره انفعال عيسى، وجده لا يتلاءم مع ما يعرفه عنه، دار على عقبيه وابتعد يجرّ نعليه بخمول. قال عيسى موجّهاً كلامه إلى أفراد عائلته المكومين على الأمتعة:

- هيا... حان وقْت الرحيل.

انطلقت الشاحنة في هدير خافت وغادرت فناء البيت، ومصابيحها مطفأة. تجنبت الشارع الرئيسي

للقرية، تدحرجت عبر الدروب الفرعية. كانت المصابيح تشتعل كلما صادفت حفرة. بعد حراك، التحقت بالطريق المعبّد عند أسفل السهل واختفت مباشرة في الظلام.

انتظر عتّو اختفاء الشاحنة ليبصق بغيظ دفين فوق كتفه ويضرب الأرض بقدمه. غمغم:

- لن نهملك. عليك إثبات ذلك بتصرف غير هذا. لعنة الله عليك يا حقير.

أخفى الحقيبة تحت ذراعه وأسرع ليلتحق بكوخه. مرّ قرب إقامة رئيس البلدية المنكوبة، عاد القهقرى بسبب مجموعة من الفتيان الذين جمعهم الأرق في الزقاق حول إبريق قهوة، صعد الأزقة المظلمة، يتوقف من حين لآخر ليتأكد من أنه غير متبوع. فجأة، انبثق شبح خفيف من سياج تين الصبار وأوقفه. فوجئ عتّو ببريق شفرة سكين يباغته. أحس بوجع حاد في الأحشاء. ترك الحقيبة تسقط ليشدّ بطنه بيديه، وسقط على ركبتيه ببطء. تسلل الشبح لحظة خاطفة تَحْت ضوء القمر. تعرّف عتّو على وجه زان المكشّر. من جديد، صفر السكين في الهواء وجاء يقطع رقبة الشيخ من الوريد إلى الوريد. صَعقته الضربة، فأحسّ عتّو بالدم الساخن يقطر بين أصابع يديه. سقط على صدره، الوجه على التراب، ولم يتحرك.

بحذر ظاهر وبطرف القدم أدار زان جَسد الشيخ

المنهار، تفحصه. بدت علامات الرضا في ابتسامته الماكرة، فمسح الشفرة الدامية بعباءة القتيل، استولى على الحقيبة واختفى في الظلمة كعفريت شرير.

في الصباح الباكر، اكتُشفت جثة عتّو، غارقة في بركة من الدماء. أمام الجمع المتدافع حول الجثة، قال زان:

- حانت الساعة. حانت ساعة الانتقام. الويل للخونة، لأن "الباتريوت" لن يتسامحوا معهم أبداً.

وفي المقهى، طوال اليوم:

- أرأيت ماذا حدث ؟ عتّو خائن؟...

- عتّو؟ هذا التافه، خائن؟...

23

قال رحال التائب:

- ابْتداءً من هذه اللحظة فنحن في منطقة الخطر. كل خطوة بحسابها. يُمكن للإرهابيين أن يختفوا في أي مكان، كما يمكن للدروب أن تكون غاصة بالألغام. لا تلتقطوا شيئاً ولا تسرعوا واحذروا جيداً أين تضعون أقدامكم.

وضع بندقيته على الكتف، قرفص ودعا أفراد الجماعة للالتفاف حوله. بواسطة عود خشبي سطّر دوائر على الأرض.

- تقريباً، هذا هو شكل الميدان. الشمال من هذه الجهة. هذه الدائرة الصغيرة تمثل الجبل الذي يوجد عن يسارنا مباشرة. ونحن نوجد هنا، على الجهة الجنوبية الشرقية.

سطّر خَطاً مُلتَوياً عبر الدوائر وأضاف قائلاً:

- سنتقدّم عَبْر هذا المحور، متتابعين. أترون تلك

الغابة، في أسفل الهضبة، توجد بها عين. لقد هيأ الإرهابيون مركزاً للتدريب ولكن الجيش اكتشفه. من حين لآخر، تقصفه طائرات الهليكوبتر. وقد اضطرت الجماعة المسلحة التي تسكنه إلى الانسحاب بعيداً باتجاه الجنوب. أكيد أن مأوى تاج يوجد بالضرورة في الضواحي، خلف الغابة. مما لا يستبعد وجود مراكز مراقبة متقدّمة، غير بعيدة عن المكان الذي نحتله الآن. ابتداء من هنا، ستنقسم مجموعتنا إلى ثلاث فرق. بوحفص وهاشم وأنا سنذهب في عملية استطلاعية. بارودي واحْميدة وفوضيل ابقوا وراءنا لحمايتنا. أما البقية، فيمشون في الوسط. لا ينبغي للمسافة بين الفرق أن تتجاوز ثلاث مئة متر. لا ينبغي لأحد أن يترك الذي أمامه يغيب عن بصره. في حالة الخطر، حافظوا على رزانتكم. إذا أطلقوا علينا الرصاص، سنرتمي أرضاً ونبحث فوراً عن مخبأ. لا ينبغي للردّ أن يكون عَشوائياً. أولاً لنحافظ على ذخيرتنا، ثانياً، لا ينبغي لهؤلاء الأوباش أن يقدّروا عددنا. إذاً، لا تطلقوا النار إلا إذا رأيتم الهدف في فوهة البندقية. لا تغادروا مخبأكم إلا باتجاه مخبأ آخر، أكثر حماية، وبطلب المساعدة من الجار.

نهض رحال.

- هل هناك أسئلة؟

نظر إليه أفراد الجماعة بصمت. حوله، بدت الجبال

الرمادية كما لو أنها كبرت بغتة. لم تغامر غيمة واحدة في احتلال السماء. تناهت إلى مسامعهم زقزقة الطيور وخشخشة الأوراق؛ ومع ذلك لم تتمكن ضوضاء الغابة من الهيمنة على الضربات الصمّاء التي تطن في أصداغ الرجال. مرّر أحدهم ذراعه على جبينه المتصبب عرقًا، التفت كما لو أنه يريد معرفة مسافة العالم التي تفصله عن قريته ولم يلقَ إلا انعكاس ضوء بعيد، أكثر إرباكاً من هاوية بلا قاع.

أدرك رحال الضيق الذي بدأ يتشبث بأعناق الرجال. أنزل بندقيته، شدّها بصلابة وقال:

- إذا وُجد مترددون بينكم، فهذا هو وقت الانسحاب. لا يتعلق الأمر بنزهة، إنّي أحذركم. يوجَد احتمال كبير أن نقع في مصيدة لا يخرج منها الكثير منا سالمين.

قال مراد حانقاً:

- إلى الأمام سرّ. لسنا أرانب.

حرّك رحال رأسه. بعد نظرة أخيرة إلى رفاقه، دار على عقبيه وأسرع الخطى عبر درب وسط الآجام، يقتفي أثره كل من بوحفص وفوضيل.

انتظر مراد وعلال وجعفر وسبعة متطوعين آخرون بعض الدقائق للانطلاق في المشي، تاركين في المكان نفسه الفرقة المكلفة بالحماية الخلفية.

في حوالى الساعة الثالثة زوالاً، وصلوا إلى فرجة

وَسط الغابة وقرّروا التوقف للراحة. لم يروا أثناء صعودهم أي حضور مشبته فيه، ولا أية إشارة حياة. بدا كما لو أنّهم يسيرون في القفار. إن الأكواخ النادرة التي صادفوها هَجَرها سُكانُها منذ شهور. حُرق بعضها وخُرّب بعضها الآخر عن آخره، فبدت كما لو أنها خرجت تواً من حلم كئيب. حتى عيون المياه رُدمت تَحْت ركام من الأحجار والتراب. الإقليم منكوب كما لو أن لعنة عصفت به. توجد مزرعة جاثمة في أعلى الغابة. كانت سابقاً تزخر بتربية الغنم وصناعة الجُبن. أما اليوم فما هي إلا خراب كئيب المنظر، يحدّد نقطة اللارجوع. انهارت جدرانها وتكسّرت سقوفها؛ لم يَبق باب واقفاً، ولا مصراع نافذة. وحدها اللطخات السوداء تشير إلى ما تبقى من زرائب نَسَفها تقدمّ الأصوليين التاري.

قال هواري مندهشاً:

- يا له من دمار...

جلس مراد على جذع شجرة جاف وباشر في نزع حذاءيه. سحب جوربيه، عصرهما ووضعهما على صخرة ساخنة. قدماه داميتان ومنتفختان. بواسطة منديل، بدأ يمسح أصابع قدميه وأوتادهما. كان حانقاً إلى حدّ لم ينتبه إلى محدثه.

أما علال وجعفر، فجلسا تحت ظل صنوبرة. في صمت، أخرجا من حقيبة صغيرة سندويشات مغلفة

بورق. نظر الشرطي بيأس إلى قسطه، فأهمله جانباً. قال جعفر ناصحاً:

- يجب إن تقوّت نفسك.

اكتفى علال بالموافقة ولكنه لم يقم بأي جهد كي يتناول طعامه. مُنذ اغتيال أفراد أسرته، يعيش في حالة نفسية متدهورة. لم يعد يتكلم، ولا يذوق طعم الأكل إلا نادراً، ولا يطفئ الضوء ليلاً في غرفته أبداً. أحياناً، حينما ينزوي، في حنين يائس لتذكر المتوفين، يُظلم وجهه ويتشنج جسده ويغرق في تخشّب مدّة ساعات طويلة، مهدّداً بعدم العودة إلى الحياة ثانية. قال جعفر آملاً في تحفيز صديقه:

- أعتقد أن رَحّال رجل مجرّب ويعرف خطة الإرهابيين جيداً. إن رزانته تشجعني وتزيدني قوّة.

ردّ الطاهر:

- شيء عادي. لا تنسَ أنه حارب في أفغانستان، وشارك خلال سنتين في عمليات عسكرية مع أشرس الإرهابيين في المنطقة. ويعرف هذا الإقليم مثل جيبه. ولكن التائب يبقى تائباً. إن مَن يخون مرة واحدة، سيصبح خائناً مدى الحياة.

استنكر جعفر هذه الملاحظة الأخيرة. التفت كلية نحو الطاهر:

- ماذا تعني بهذا الكلام؟

هزّ الطاهر كتفيه.

- إنه رأيي الخاص. أنا لا أثق بهذا الشخص. لا شيء يؤكد أنه لا يقودنا إلى حتفنا.

قطّب جعفر حاجبيه.

- قال مراد بأنه يُمكننا الاعتماد عليه.

- إن مراد مخدّر. فقدَ صفاء ذهنه منذ أمَد بعيد. صحيح أن رحال تاب، ولكن توبته ليست بسبب أزمة ضمير، ولا بسبب قناعات دينية. لقد عرف مشاكل مع أميره وكان على قاب قوسين أو أدنى من التصفية. إنه السبب الذي حفز استسلامه. إنه حقير مثل الآخرين. لقد قام بقتل عدد كبير من التعساء الذين لا حول لهم ولا قوة، وأنا متأكد أنه لا يشعر بالندم بتاتاً. أقول لك بأنه قاتل. يستحيل أن أغْمض عيني بحضور شخص مثله إلى جانبي.

- لماذا تبعته إذاً؟

- لم أتبعه. علال صديقي. وأنا أبحث برفقته عن سارة. المُهم في كل هذا الكلام أننا ينبغي أن نتوخى الحذر وأن لا تغادر أعيننا هذا الشخص لحظة واحدة. على كل حال، أنا أراقبه جيداً. وإذا لاحظت أدنى إشارة باتجاه الخيانة، فسوف لن أترك له الفرصة لإخفائها.

- ما هذه إلا حماقات.

- ربّما، ولكنني لا أريد أن أموت كيفما اتفق. بالنسبة إلي، لا يوجد أي شك في هذا: إن الذي

يخون مرّة، يكون خائناً مدى الحياة. أعْرف أنه حكم قاسٍ نوعاً ما ولكن هذه هي الحقيقة التي لا يفيد تجاهلها في شيء.

هنا، كوّر الطاهر سترته، وضعها على صخرة ثمّ حطّ رأسه مسلماً نفسه لغفوة خفيفة. واصل جعفر مراقبته بضع دقائق. بعد ذلك تناول سندويشته من جديد، لينتبه أنه فقَد شهيته.

في فجر اليوم الثاني، توقّفت المجموعة عند أحراش أحرقتها قذائف سابقة لسلاح المدفعية. وسط شجيرات مفحّمة وحفرات قنابل سوداء، وبالذات على طرف درب مضلّع، تتعفن ثلاثة رؤوس آدمية تحت الشمس. لقد قُطعت من الرقبة، تتدلى على طرف غصن، شبيهة بتذاكر صيد مُرْعبة. لقد لوّثت الرائحة الكريهة المكان. شلّ هول المنظر مراد ورفاقه. وضع بعضهم بغتة اليد على الفم والتفتوا جانباً، أحسّ الآخرون بركبهم تتلاشى تحتهم. انحنى أحدهم وطفق يتقيأ في حشرجة راعدة. قال رحال:

- أهلاً وسهلاً بكم في أدغال الأمازون.

غمغم مراد:

- لماذا الأمازون؟ إن آكلي اللحوم الآدمية الحقيقية وُلدوا عندنا.

بَعد مسافة غير بعيدة، اكتشفوا مخيّماً لبدو الرحل،

بخيامه القديمة المرقعة بقبح ظاهر وأعمدته الضامرة. امرأتان مذبوحتان تتمددان حول قدر مقلوبة. داخل الكوخ، يتعفن جسد رضيع مبقور في مهده المكسر، مغطى بسرب ذباب شره.

- يا لهول البشاعة... انظروا... انظروا...

- ما هي الجرائم التي ارتكبها هؤلاء المساكين كي يُقتلوا بهذه الوحشية؟

- لأنه ليس لديهم ما يلامون عليه.

نادى رحال من عمق هاوية:

- تعالوا... توجد جثث أخرى من هنا.

تتناثر جثث خمسة رجال وسط قطيع ماعز نافق. إنها عارية وعلى الأجساد آثار تعذيب. غير بعيد منها، يتمدّد فتى إلى جانب طفلة صغيرة، اليد في اليد. كأنهما يحلمان. لولا أن رقبتَيهما النحيفتَين قد نبشتهما شفرة سيف أو خنجر... قال رحال وهو يتدحرج مسرعاً خفيفاً على جانب الهضبة:

- هيا... لا ينبغي أن نبقى هنا...

صَعبٌ على الشمس أن ترتفع فوق الجبل. في صمت الغابة، يتنافس طنين الذباب مع رائحة التعفن. بالنسبة إلى مراد ورفاقه، إذا كانت جهنم أكثر رعباً من كل بشاعات الأرض، فلا يمكن لها وحدها أن تخفف من وقعها.

لم يُحدّدوا موقع الإرهابيين الأول للمراقبة إلا في نهاية الظهيرة. ويعود الفضل في هذا الاكتشاف إلى تجربة رحال وفطنته. كان المكان مُموّهاً خلف آجام يصعب الصعود إليها. يغطي قمة مشجرة ويشرف على الممر الوحيد الذي يؤدي إلى هذا الجزء من الجبل المحصور في تضاريس وعرة. تفحّص رحال الهضبة بمنظار مقرّب، أطال النظر إلى الأحراش المجاورة للموقع. أعلن:

- إنهما اثنان. يمكن القضاء عليهما بسهولة.

بحركة يد، أفهم فرقة مراد بألا تتحرّك من مخبئها. ثمّ زحف وسط الحشائش البرية وصعد مرتفعاً ترابياً بخفة مذهلة. بعد دقائق بدت كالدهر، انطلق صوت رصاص متبوعاً بطلقات رشاش، تلاها صراخ إنسان. مباشرة، سارع بوحفص وفوضيل باتجاه الوادي لمباغتة العدو من الخلف. دوت بندقية صيد، ثمّ غطاها وابل من الرصاص.

- ماذا يحدث؟ صرخت الفرقة الخلفية وهي تركض باتجاه فرقة مراد.

صرخ جعفر بنبرة مترددة:

- عودوا إلى أماكنكم. اكتشفنا مكان إرهابيَين.

دوت ثلاث طلقات رصاص في قمة الهضبة. احتل

بوحفص وفوضيل المركز، فتشوا الضواحي ثم عادوا إلى المرتفع المكشوف كي يطلبوا إلى بقية المجموعة الالتحاق بهم. مرّ مراد إلى الأمام ساخطاً على مغلاق سلاحه الذي رفض أن يشتغل، ثمّ طفق يجري كالمجنون وسط الشجيرات. على مرتفع، كان إرهابي يتمدّد مشرَّع الذراعين، رث الثياب، لحيته تمتد إلى أسفل البطن والجمجمة مهشّمة بوابل من الرصاص. قال فوضيل بصوت يتخلله ارتعاش:

- هرب الآخر من هذه الجهة. انطلق رحال في مطاردته. لن نتركه يفلت من قبضتنا.

بالفعل، لقد تمّ القبض على الإرهابي الثاني على بعد بضع مئات من الأمتار في عمق الغابة، مجروحاً في الظهر والساق. كان يزحف على البطن ويتشبث بالصخور وجذور الأشجار. وضع رحال قدمه على رقبة الهارب وأوقف حركته.

- إنني أعرف هذا الوجه... ألست ابن حاسين البائع الجوال؟

أضاف الطاهر:

- إنه هو فعلاً. إننا أبناء عمومة.

انحنى علال على الإرهابي، أمسكه من الشعر بعنف كاد يكسر رقبته:

- أين سارة؟

أطلق الإرهابي قهقهة حادة أرعدت أطرافه. تأمل الشرطي، أظهر أسنانه المسوّسة في تكشيرة:

- لم تنتظر طويلاً للمجيء إلينا أيها الشرطي الطاغوت. ستلقى مصير ذويك نفسه، أقسم لك.

- أين زوجتي؟

- تقصد زوجتك السابقة. ليست لك الآن. قدّمها تاج هدية لقادة هلال. يكون الآن معها يأخذ حقه من المتعة. لا تقلق عليها، لن تعرف الملل أبداً.. إن النساء لا يجدن وقتاً للضجر مع المجاهدين في الجبل.

صرخ مراد غاضباً:

- أين يقع المركز؟ قل لي أين يقع المركز وإلا أَفْرَغت فيك الرشاش أيها الحقير.

- إنك تخيفني يا مدخّن الحشيش، تخيفني إلى حدّ أنني سأبول في سروالي... هاها...

من جديد، غرق في قهقهة صاخبة هزّت جسده كاملاً. كان رأسه يتحرك بارتخاء، مال جانباً، وبدأت عيناه تتحوّلان. صرخ الطاهر:

- احذروا... إنه على وشك فقدان الوعي. لا تتركوه يغمض عَينيه، سوف لن نتمكن من إيقاظه.

تدخّل رحال بإبعاد المتحلقين حول الجريح:

- اتركوني أفعل. سأوقظه في لمح البصر.

قرفص قرب جسد الإرهابي وانهال على وجهه بعدة صفعات مدوية.

- اضغطوا على قلبه. إنه يتملص من أيدينا.

أطلق الإرهابي زفيراً وتجمّد. واصَلَ رَحّال تحريكه بقوة، ولكن لم تنفع شتائمه ولا هزّاته الفظة في إعادة الحياة إلى جسد الإرهابي.

بدت فرجة الغابة كما لو أنها استعادت سكينتها. برغم الشمس الحارقة، فإن ظل الأشجار يلقي نسيماً عليلاً كما في واحة. يقبع شحرور وسط الأغصان ويشدو بزهو. كانت سارة هناك، مُمدّدةً على التراب العشبي. إنها عارية. يلتف حولها شعرها الأشقر الذي تحركه النسمة الخفيفة كما السكب الذهبي. كان ظهرها المقوس يحافظ على آثار ضربات السوط. يداها وقدماها مقيدة بسلك حديدي.

وقَف رحال قربها وراح يفكّر كيف كانت قبل شهور قليلة فقط: عذِراء متألقة تثير أحلام جميع الشباب. يتذكر رشاقتها النحيفة كما القصب، ولكنها فاتنة ومتملصة كما السراب في عمق الصحراء.

نزع معطفه وحطّه ببطء على الجسد الهامد. خلفه،

توقف بقية أفراد المجموعة في ذهول مرعب. جال ببصره بعيداً لا يعرف ماذا يفعل بالضبط.

قرأ رحال الفاتحة على روح القتيلة ثمّ عاد. سمع لسانه يتمتم لعلال:

- أنا آسف.

لم يسمعه الشرطي. عيناه جاحظتان. شفتاه وحدهما تتحركان وسط وجهه النازف، العاجز عن أداء أي صوت. بقي على تلك الحال دهراً قبل أن يقترب من مأساته. ارتجفت ساقاه. تمايل، مشى كما لو أنه وسط ضباب.

هزّ مراد رأسه وانسحب، مَتبوعاً بأعضاء فرقته. أما جعفر، فمكث مذهولاً. جذبه أحدهم من الذراع، ولكنه رفض الابتعاد.

ارتمى علال أمام جسد زوجته. امتدت يده المترددة لتلامس الشعر المتناثر على العشب. أطلق تأوهاً:

- لماذا يا ربّ، لماذا؟

التفت رحال. رأى الشرطي ينحني على زوجته، ويأخذها بين ذراعيه...

- لـاااا...

لقد فات الأوان: انفجار مروّع رفع علال وسارة عبر فرجة الغابة في زوبعة من النار واللحم. أما جعفر فقد قُذف بعيداً واصطدم جسده بجذع شجرة، مبقور

البطن بشظية. تدحرج رحال داخل ساقية، مقذوفاً بنفس الانفجار. نهض مراد مصعوقاً. لم يفهم ما وقع. حوله أربعة رجال يصرخون وهم يتمرغون أرضاً. غير بعيد منهم يتمدّد رجل آخر مشوه الوجه، صدره يدخّن. صرخ الناجون في رعب عصيّ الوصف:

- ماذا حدث؟ ماذا حدث؟

نجا شخص بأعجوبة وبقي يدور في مكانه، بليد الذهن، مشيراً بإصبعه إلى جسدي سارة والشرطي الممزقين. تمتم قائلاً:

- الجثة مفخّخة... جثة المرأة مفخّخة...

24

يسرع النهار إلى نهايته كما يركض الساحر المخلوع إلى حتفه. يشرب المساء من كواليس الغابة كي يروي سواده. في السماء، حيث لم تجرؤ غيمة على الاهتزاز، تدور نجوم صغيرة جداً حول نفسها، شبيهة بدعوات باحثة عن الرب. شيء ما في الهواء على وشك لفظ أنفاسه. لا الأشجار التي تستعد لغلق الأذرع كي تنام، ولا الكلاب انتبهت لاحتضاره. ينسحب النهار في اللامبالاة. سينطفئ كحفيف في دغل، مثل الخرافة التي تتوقف في الساعة التي يُشل فيها الذهن.

يحس داكتيلو بكآبة قاتلة. أدخل خراب الآثار حزناً في نفسه. لقد محت يد الظلاميين ذاكرتها. سلبت جلالتها جدران قميئة من آجر "البربراين". قريباً، ستختفي تحت الحديد والإسمنت المسلح، وتنهار الهضبة تحت حصار الغثاثة. لا يعثر أي ماضٍ على

علامة ليخصبها. ولا يبقى للنباشين، كذكرى، إلا ندم أولئك الذين ساندوا التدنيس وهم يديرون له ظهورهم.

تاه داكتيلو بين الأشواك والمرارات. لم يجرؤ على مواجهة السهل المنبوش، ولا الحقول المُهملة المتناثرة حوله. تَعِب من مطاردة الأوهام عبر منظر لا يتوقف عن بعث اليأس. لا يوجد أسْوَء خطأ مثل خرافة مروّضة... التحق به الليل عند مدخل القرية. استقبله منزله كما في الجنازة. لم يكن داكتيلو جائعاً. يُريد أن ينام فقط. انزلق داخل سريره ولم يتحرك.

- قُمْ يا من في الداخل...

ارتجف الكاتب العمومي، تاه في البحث عن زر النور. خمسة رجال مسلحون يقفون وسط الغرفة، اللحية أكثر وحشية من جزّة كبش بري، الملابس متسخة والنظرة قاتلة.

وضع تاج عصمان رشاش "الكلاش" إلى جانب الآلة الكاتبة، جلس على زاوية الطاولة وشبك أصابعه على ركبتيه.

- ماذا تَفعل في الظلام أيها المتعلّم؟

- أتدرّب على الليلة الأبدية وعلى حداد الأصدقاء.

- ومن قال لك إننا نريد بك شراً؟

- لا ندخل بهذه الطريقة عند الذين نعزهم.

قهقه تاج.

- لقد وضعت إصبعك على الدائرة. إن المكلف بجهنم يحتاج إلى كاتب. بعثني لتوظيفك.

دفع داكتيلو الغطاء ليجلس. أمسك إرهابي بندقيته "المحشوشة" بعصبية. هدّأه تاج قبل أن يلتفت نحو الرفوف الغاصة بالكتب.

- في نهاية المطاف، لم تنفعك قراءاتك كثيراً.

- إن الأمر يخضع إلى الجهة التي نريد أن نتقدم باتجاهها.

- تجد داخل هذه الكتب القوة التي تساعدك على الهروب من الواقع. لماذا لم ترجع إلى بيتك بعد حرب 62؟ هل خفت أن تجد شخصاً آخر في حضن زوجتك؟

قال زان:

- ليس إلا مخصياً بليداً. يبحث في الكتب عما ليس مستعداً للقائه في الحياة. لا تعطي له قيمة أكثر مما يستحق. إنه مجنون، مُتحمِّس تافه. مُنذ البداية، لم يتوقف عن اغتيابنا، عن تأليب الناس ضد المجاهدين. اقْطَع رقبته أيها الأمير. لا توجد وسيلة أخرى لإسكات لسانه الطويل.

وقف تاج بكبرياء، اقترب من الرفوف. بطرف إصبع أسقط الكتب، الواحد وراء الآخر.

- إن الكتب ألدّ أعداء الإنسان يا داك. تستعمر رأسك. إذا كان هناك إنقاذ فعلاً فينبغي أن تبحث عنه

في رأسك. إن إنقاذ الغير ليس ملكاً لك. يصبح خطراً عليك إذا تكفلت به.

بحركة فظة أسقط الرفوف. تدحرجت الكتب وتبعثرت على الأرض.

- أيها الغبي، لقد كذبت عليك كتبك. كانت تحكي لك خرافات لا قيمة لها.

ثمّ راح يتأمل صور الكُتّاب المعلقة على الجدار.

- إن هؤلاء الأشخاص مشعوذون. يبدعون حكايات هم عاجزون عن أدائها وينسبون لشخصياتهم أدواراً تنقصهم... إن الكُتاب مزوِّرون، يا داكتيلو، يقومون بإغراء السذّج. إن الكاتب هو أول من لا يؤمن بنظريته. للأسف الشديد، ما دام الحمقى يأخذون مأخذ الجد هرطقات هؤلاء، فلا أرى لماذا يتوقفون عن إبداع أوهامهم.

نزع الصور ورماها في المزبلة.

- إنه المكان الوحيد، بعد المقبرة، الذي يليق بهم كما القفاز.

عاد نحو الكاتب العمومي. لم يعرف داكتيلو كيف وجد نفسه واقفاً. الخوف يقضم أحشاءه، يقطّع ساقيه، يتفتت كيانه، يتبخر، ومع ذلك يقاوم بكل ما أوتي من قوة كي لا ينهار، كي لا يتوسل إلى أحد. خاطبه زان بفظاظة قائلاً:

- لماذا لا تقول شيئاً؟ في العادة، لسانك أطول

من لسان عجوز شمطاء. ماذا حَدث لك فجأة؟ أين ذهبت تلك الجمل الرنانة، تلك الكلمات التي لا يعرف أحد كيف يبحث عنها في القاموس.

جمع تاج رشاشه. أظلمت عيناه الكئيبتان. قال:

- أنا أكره الكتب يا داكتيلو، سواء تلك التي كتبها الشعراء أو الأئمة. فإنها تقلقني. لدي حساسية مفرطة تجاه رائحة الورق، وشكله وكبرياء مؤلفيه. أكره تلقي الدروس. قل لي بربك، ماذا يعرف هؤلاء الكتبة عن الحياة، ماذا يعرفون عن الناس؟ لا يكادون يدركون مقاصدهم. العالم جدّ معقد. يستحيل الإحاطة به وفهم جميع آلياته. على كل حال لا يمكن إنقاذ البشرية بالكلمات. بالنسبة إلي، إن الكتابة هي التدريب على التصوير بامتياز. الشيء الوحيد الذي أؤمن به، هو هذا ـ أضاف شاهراً سلاحه ـ، لا تتراجع البندقية عن تصريحاتها أبداً. حينما تنطلق الرصاصة، سفر بلا عودة... أحرقوا هذه القاذورات، صرخ آمراً رجاله. وأنت أيها الكاتب الحقير، مُرْ أمامي. في المساء، ستكون في المقاعد الأولى لحضور أجمل كَرْنفال ستراه في حياتك التعيسة.

ركض زان لإحضار جيريكانات البنزين من ساحة البيت، رشّ الكتب والسرير والستائر وحكّ عود كبريت.

- احذروا أيها الإخوة، ابتسامة. سيخرج العصفور الصغير.

اندلعت النيران في ارتداد باهر وانتشرت عبر الغرفة. تراجع زان إلى عمق الفناء. وَضعَ يديه على فمه لقمع صرخة فرح، يتلذّذ وقد بهرته الكارثة الصاعدة.

تعثّر داكتيلو عبر الدرب الوعر. انهال عليه الإرهابيون بضربات من أخمص البندقية كي يسرع الخطى. خلفه، تلتهم النيران منزله، تتسرب من النوافذ وتصعد نحو السماء، في هدير مهول.

عند أسفل الهضبة، على بعد أميال من غاشيمات، تحترق قرية مولاي نعيم هي الأخرى. تُسمع لعلعة الرصاص ودوي الانفجارات. يتعالى صراخ السكان الذين تعرّضوا إلى الاعتداء في الليل، يتدحرج على سفوح الجبل ليَسْتقر بعيداً في عمق الغابة. قال تاج بنبرة انتصار:

- انظر داكتيلو... انظر قرية الخونة كيف تتحوّل إلى رماد. أين هي مجموعة الدفاع الذاتي التي تحميهم. ظنوا أنهم يخيفونني بذريتهم. أعْطيت الأوامر لرجالي كي لا يتركوا بها لا زرعاً ولا نسلاً، قلت لهم أجهزوا على الجميع، بما فيهم الحيوانات والرضّع. أليست هذه لوحة رائعة؟ أتسمع صراخ الرعب والعَجز والمرارة؟ العجيب أن لا صدى لعذابهم سيتردد غداً في الجرائد.

عاشوا مجهولين، سيموتون مجهولين، لأنهم رسمياً لم يكونوا يمثلون قيمة ما. البؤساء... سيواصلون الصراخ طوال الليل ولا يحرك أحد إصبعه الصغير من أجلهم، لا الجيش ولا الله. تاج كما الماكينة الزاحفة، لا يترك وَراءه إلا العراء والخراب .

أمسك أحد الإرهابيين داكتيلو من طوق قميصه ورماه أرضاً. قرفص زان أمامه.

- قل شيئاً أيها الكاتب. حاول أن تقنعهم بفك قيدك. قدّم لهم الحجة الدامغة على أنّهم في طريق الخطأ. أنت تُحسن الكلام وإقناع الناس. كم أنا حزين لمصيرك يا داكتيلو؟ ستنقصني جملك الجميلة. من فضلك، قُل شيئاً قبل أن يبقروك... قُله للتاريخ.

أغمض داكتيلو عينيه بكل ما بقي له من قوة، شدّ على فكيه. لامست شفرة الخنجر أرنبة أنفه قبل أن تنزلق بلطف نحو ذقنه.

- قل شيئاً يا حقير.

أحس بكامل جسده يتلوى تَحْت لسعة الشفرة. انفجرت في رأسه آلاف الشرارات. جحظت عيناه من الوجع. رأى درباً يركض وسط الأعشاب، لسان الوادي يلحس القصب، منزلاً خالياً في نهاية الطريق، ثمّ، لا شيء... لجري على شكل زوبعة يمتصه ببطء نحو عالم مجهول.

25

خرج إسماعيل عيش من جحره، عملاقاً، بوجه مقنع داخل جزّة متسخة. رفع عينيه نحو السماء الصافية، ثمّ إلى الأشجار التي تحدّ المخيّم، وهزّ رأسه من اليسار إلى اليمين على طريقة الملاكمين. يرتدي مئزراً من القماش المشمع، مربوطا عند الظهر بحبل الحَلفاء. عند الحزام الجلدي يتدلى خنجران كبيران، وآخر أصغر في غمده وسيف رقيق الشفرة. بدا معجبًا بعدّته، فأمال رأسه إلى الخلف وأطلق قهقهة جامحة وسط الصمت المخيّم. صرخ للرجال القريبين منه:

- ما رأيكم في هذا ؟

قدّم بطنه المنتفخ، لمس مئزره.

- آه، لو يستطيع أحدكم أخذ صورة لي في هذه البذلة الرسمية. (تحرّك كي يسمع صرير ترسانة الجلاد التي تزيّن وسطه). أين هي القِدْر الحقيرة؟

قال صوت:

- إنه هنا، خوف خان.

نفخ إسماعيل صدره. يبتهج ويمتلئ زهواً عند سماع لقبه الذي أضحى يُرعب الجميع، بمن فيهم أفراد الجماعة المسلحة. فمنذ أن قطع رأس الإمام صالح، صار يعرضه في كل مكان كفعل بطولي خارق للعادة.

قرفص قرب القِدْر وغسل يديه إلى المرفقين، كما لو أنه يتوضأ، ثم غسل وجهه، ووقف وهو يمسح راحتي يديه على مؤخرته قبل أن يواجه السجينَين. كان أصغرهم مرشداً كشفياً تمّ توقيفه عند حاجز مزيّف. أما الثاني، فإنه ضابط شرطة، رجل في الخمسين من العمر، قصير القامة بوجه عذّبته نوائب الدهر. اختُطف بالأمس وتعرّض لاسْتنطاقات متعددة، ولم يتمكن التعذيب ولا الوعد بإطلاق سراحه من فك لسانه ولو بكلمة.

- خذوا الأول إلى الوادي وقيّدوه جيداً. أكره أن أتلقى ركلاته في الخصر.

انقَضّ ثلاثة رجال بفظاظة على المرشد الشاب الذي بدأ يصرخ ويتخبط. أطال إسماعيل المتعة لدقائق عديدة قبل أن يلتفت نحو الشرطي:

- قيّدوا هذا أولاً...

أُطلِق سراح المرشد، فزحف كالمجنون باتجاه مكانه عند أسفل الشجرة وانكمش على نفسه. كان

ضابط الشرطة واقفاً، مُستعداً للإعدام. تفحص إسماعيل وقال له:

- أنت مثير للشفقة حقاً.

- في هذه اللحظة يا طاغوت، أنت الذي بحاجة إلى الشفقة.

- سنلتقي، هناك في الآخرة.

- لا تحلم كثيراً أيها الشرطي. لن نسكن في جناح واحد.

بصق الشرطي على الأرض:

- يا لك من مجنون...

انهال الرجال الثلاثة عليه ضرباً ودفعوه باتجاه الوادي. قال إسماعيل آمراً:

- لا تمزّقوه. أفكر في عرض رأسه الجميل في ساحة قريته.

كان بوجمعة جالساً على صخرة، البندقية بين فخذيه، وبدا كما لو أنه لم يكن راضياً عن المشهد.

دمدمت الغابة تحت زمهرير الرياح. طقطق الحَطب المشتعل وسط المخيّم فيما كانت رائحة المشوي تُسيل لعاب الذئاب التي يكون الطمع قد أخرجها من مخابئها القريبة. لا يزال يُسمع بكاء النساء اللائي اختطفتهن عصابة المتوحشين في عملياتها الانتقامية ضد التجمعات السكانية المجاورة، واللائي يتزوجهن الإرهابيون مدّة

ليلة أو مضاجعة قبل أن يبقروهن. تُسَمَّى هذه العلاقة زواج المتعة: يكفي قراءة الفاتحة قبل الجماع وكل ما يليها حلال مبارك.

دوت ضحكة إسماعيل في الليل الدامس. حجب شبحه اللون الخافت لجحره واختفى وراء الآجام. تعالى رش بوله في الظلام. وصل يوسف ومعه غداؤه، فانتقى لنفسه مكاناً إلى جانب بوجمعة الجالس بمفرده، بعيداً عن الآخرين. أولج قطعة لحم في فمه وراح يمضغها بصوت مسموع، وهو يلحس أصابعه التي تقطر شحماً. قال يوسف لبوجمعة:

- في العادة، بمجرد أن يظهر شبح طاغوت، تقفز للقضاء عليه بسرعة يصعب لظلك أن يلتحق بك. أين هي حماستك؟

- أيزعجك أن تتركني وحيداً؟ لست على أحسن ما يرام اليوم.

مرّر يوسف لسانه على شفتيه، فلعق خيطاً رقيقاً من لحم تائه على شلاغمه، ابتلعه وقال: - "إن الأمم الكبرى تقوم دوماً على المجازر. الدم غذاؤها كما الزِبْل غذاء الدهماء". هكذا كان الشيخ عباس يقول. كنت أتصوّر أنك معجب به .

تفحّص بوجمعة محدثه طويلاً:

- تاج هو الذي بعثك إليّ؟

- ما الذي جعلك تفترض ذلك؟

- يكون هو أيضاً قد وجد حماستي تفتر بسرعة جنونية.

- لم يقل شيئاً يخصك.

نطق المرشد الكشفي مُتوَسِّلاً:

- من فضلكم يا إخوتي، لا تقتلوني. لم أفعل شيئاً ضدكم.

رماه يوسف بحجر.

- اخْرَس يا كلب.

- أنا مدرّس. أُعلِّم النباتات لأعضاء الكشافة.

- هل تغلق فمك، أم... ؟

انكمش المرشد الكشفي عند أسفل الشجرة وطفق يتأوّه. قال يوسف لبوجمعة:

- إذا كانت لديك مشكلة، أنا مستعد لاقتسامها معك. نحن أكثر من إخوة. سنجد لها حلاً إذا وحّدنا جهودنا. أنا قلق عليك. إنك تبتعد عن الجماعة، وهذا ليس فعلاً جيداً. إنك تلفت الانتباه إلى شخصك وتؤلّب الجماعة ضدك. إن كثيراً من رفاق السلاح قد أجهز عليهم إسماعيل لمجرد شكوك طفيفة. بل قُتل البعض فقط ليجعلهم عبرة للآخرين. كانوا شجعاناً كغيرهم. ولكن الرقابة والوشاية ضاربة أطنابها وسط الجماعة. إن أدنى خرق يفجّر هلعاً كبيراً. ومَع ذلك فأنت تواصل ممارسة عزلتك كأن شيئاً لم يكن وتعرّض نفسك بحماقة. لا، لا تقل شيئاً. لم آتِ للحديث معك. أنت

شخص عزيز في نظري. ولا أريد أن تُقطع رقبتك من أجل شكوك تافهة. هذا كل ما في الأمر. إن تاج لا يتردّد في ذبح أبيه مثلما تعرف. خاصة في المدّة الأخيرة. إنه لم يعد يتحكم في أعصابه. لذلك، فاحذر. عد إلى القطيع ولا تلفت الانتباه إلى شخصك. ثمّ لا تنسَ أن أخاك مراد قد حمل السلاح ضدنا. لو كنت في مكانك لكنت حذراً أكثر من أي شخص هنا...

عاد المرشد الكشفي إلى التوسل:

- يا إخوتي... فيما يفيدكم قتلي؟ لست إلا مدرساً بسيطاً...

غمغم يوسف:

- ألا يصمت هذا القذر؟ سأفقد صوابي وأرتكب حماقة.

- لا أريد أن أموت... لا أريد أن أموت... لا ـ أريد ـ أن ـ أموت...

عند كل مقطع صوتي، يضرب المدرّس الكشفي مؤخرة رأسه بجذع الشجرة. توقف الإرهابيون عن تناول طعامهم ليوجّهوا أنظارهم إليه. صفق أحدهم بيديه كي يُحدث إيقاعاً وكرّر مع السجين:

- لا ـ يريد ـ أن ـ يموت...

قلّده الآخرون وطفقوا يصيحون:

- لا ـ يريد ـ أن ـ يموت... لا ـ يريد ـ أن ـ يموت...

أمسك بوجمعة بندقيته وراح ينعش ساقيه وذهنه باتجاه الوادي.

في صباح الغد، حينما قام يوسف بتفتيش الحراسة، اكتشف حارساً ملقى في ساقية، ساقاه معلقتان إلى غصن جاف ورقبته مفتوحة.

لقد اختفى الأسير.

وبوجمعة أيضاً.

أنهى الأخوان نَعمان تمويه مركز المراقبة الجديد. حفرا حفرةً بعمق متر ونصف المتر إلى جانب المنحدر ومدّاها بساقية صغيرة تسمح لهما بالانزلاق داخلها والالتحاق بصخرة في حالة الانسحاب. كانت يد نجيب تحترق. إن الأغْصان التي شيّدها حول الحفرة خدشت راحتي يديه إلى حدّ إدمائهما. انْهار على كومة التراب التي كدّسها بنفسه، يسيل عرقاً وشفتاه شاحبتان. فيما كان أخوه الصغير شَعْبان، المراهق النحيف، يقبع تحت أجمة، منفتح القميص على بطن يكاد يلتصق بعموده الفقري. لم تعد تُنعشه القبعة التي استخدمها كمروحة.

رفع نجيب قارورة الماء إلى فمه، ثمّ رشّ رقبته وأعلى جمجمته القَرْعاء. قال:

- كان عليك أن تأخذ دواءك معك.

- لم أجد أمامي إلا الوقت الكافي للقفز فوق السقف.

- إنهم مصمّمون هذه المرّة. سوف لن يتركونا نفلت من أيديهم. لا يمكننا الرجوع إلى الوراء، كما لا يمكن التسلل عبر حواجزهم الكثيرة. يكون بوجمعة قد تعاون معهم بجدّ. لمْ يترك الخائن شاردة ولا واردة إلا وأخبرهم بها. أتساءل إن فعلت حسناً بجرّك معي في هذا المأزق.

- إن ما حدث قد حدث.

- أقلقتني حالتك الصحية كثيراً. أنا خائف من أنك لن تصمد طويلاً.

ترك شعبان القبعة تسقط على وجهه.

- يا أخي الكبير، لا يهرب أحد من مصيره. لا تُلقِ اللوم على نفسك. عمري سبع عشرة سنة مثلما تعرف. لقد تحملت مسؤولياتي.

في القيظ اللاهب فوق السهل، تحلق طائرات الهليكوبتر على علو أمتار قليلة فقط، أشبه باليعسوب. من حين لآخر، تحدث طلقات المدفعية زوابع من النار والدخان داخل الغابة. عبر طريق مولاي نعيم، يزحف موكب عسكري مهول، فيما داهمت الوحدات الأخرى المجندة منذ يومين التجمعات السكنية المجاورة من أجل عمليات تفتيش موسّعة.

قال نجيب بعصبية:

- ما كان عليك أن تلتحق بنا.

- كانت جميع الطرق غاصة بالحواجز العسكرية. لم يكن لديّ اختيار.

كان نجيب حزيناً لحالة أخيه الصغير. ينظر إلى صدره المريض ولون بشرته الزيتوني وعينيه المُنْغرزتين داخل جبينه الجاف.

منذ ردّة بوجمعة، لم تتوقف كتيبة تاج عن الانسحاب باتجاه مرتفعات الجبل. فقامت بتلغيم الدروب بالقنابل اليدوية كي تؤخّر تقدّم الجيش، ولكن العساكر الذين انتشروا بحنكة في المنطقة يتقدمون بسرعة، ليحدثوا خسائر مفجعة عند كل اشتباك. غمغم شعبان بحنق:

- لعنة الله عليك يا بوجمعة. سوف لن تأخذها مَعك إلى الجنة.

ابتسم نجيب بمرارة:

- الجنة، تركناها خلفنا يا أخي الصغير. السهرات المتأخرة، الحفلات في رطوبة الليل، المُزح عند كل دورة زقاق، البنات اللواتي نترقب جمالهن حول الأولياء الصالحين، هل تتذّكر؟ وأناشيد الوالدة قرب مثاب البئر، وغضب الوالد المسعور، وحماقات عيسى العار، وعشاق الليل، ونهيق الحمير في الظهيرة القائظة... هذه هي الجنة، الجنّة الحقيقية، جنتنا، بسيطة كصباح الخير. إنّها وراءنا الآن... لا تنظر إليّ

هكذا يا صغيري. لقد وقعنا في ورطة كالأغبياء. عبّأونا مثل المُنَبهات وتركونا نرن في الساعة الخامسة والعشرين الخارجة كلية عن المعقول.

- لا تجعلني أعتقد أن كل الناس الذين قتلناهم من أجل لا شيء.

نفخ نجيب خديه. اسْتأنف بصره متابعة تقدّم موكب الشاحنات العسكرية.

- إنها الحقيقة المرّة.

أحسّ شعبان بارتباك من استنكار شقيقه الأكبر. تردّدت يَده قبل أن تمسك يد أخيه.

- ماذا سنفعل؟

- ستهرب من هنا. إن عمرك سيعمل لمصلحتك.

- وأنْتَ؟

- اسْمي منشور في كل مكان. ليس لدي أدنى حظ.

- سلّم نفسك.

- لقد فات الأوان.

- لن أذهب بدونك.

أمسك نجيب أخاه من الكتفين.

- ستذهب من هنا فوراً. بلا عناق ولا عواطف زائدة. يوجد درب ماعز مباشرة بعد مركز حراس الغابات. عندك حظ واحد في المائة للوصول إليه، وستجرِّب حظك هذا. الميدان وعر وفيه مُنعرجات كثيرة تساعدك على التسلل. في الجهة الأخرى من الهضبة

توجد مزرعة مهملة. اخْتفِ في الحدائق المجاورة ليلاً. في الصباح، دبّر أمرك كي تصل إلى الطريق وسلّم نفسك. مِن جهتي، أحاول أن أخرج من هنا سالماً، لك وعد مني.

لم يعاند شعبان. حينما يأمر الأخ الأكبر فما على الصغير إلا الانصياع. رتّب داخل جرابه الصغير قارورة الماء وعلبة مصبّرات ومسدساً. أدار له نجيب ظهره عمداً.

- اعْتنِ بنفسك يا نجيب.

- قلت لك طِرْ من هنا.

نظر شعبان إلى قبعته بحزن، غطى بها رأسه إلى الأذنين وطفق يَتدحْرج عبر الدرب متشبثاً بالآجام.

اقتربت الطائرات العمودية. اندس نجيب داخل الحفرة، وأرجع الأغصان المورقة عليه. في هذه اللحظة بالذات، في عمق العتمة، أدرك هول عزلته.

سدّد إسماعيل بندقيته تجاه الهليكوبتر. كانت الطائرة قريبة جداً بحيث يميّز شفرة المروحة تحرّك الهواء. مزّق صَفيرٌ الهواء. تفجّر مركز المراقبة وسط زوبعة من الغبار والنار. واصلت المدفعية ضرباتها على مرتفع الجبل. برز نجيب وسط الدخان، متمايلاً، مبتور الذراعين. انبثقت طائرتا هليكوبتر فوق الغابة. هزّت القذائف الأرضية المجاورة. طفق حريق يلهب الأشجار والحشائش الجافة في سيل جارف. خرج إسماعيل إلى مكان مكشوف. يقف على قدميه، ويضرب على صدره

بقبضته، مُقهقهاً في جنون. نسفه انفجار وسقط على ظهره، عيناه جاحظتان، الفم مفتوح على ضحكة مصعوقة. احتل صف العساكر الأول المكان بسرعة في وابل من الرصاص. انسحبت طائرات الهليكوبتر وغيّرت المدفعية ضرباتها باتجاه المُرتَفعات لمنع الكتيبة من الانسحاب.

أدار جميع سكان غاشيمات رؤوسهم تجاه الجبل. مِن فوق سطوح المنازل، تراقب النساء الأفق، أياديهن فوق الجبين، اتقاء للشمس. في الساحة العمومية، تسمّر الأطفال من هول الدهشة. أما الشيوخ والكهول فإنهم يدققون في أعالي الهضبة، مقرفصين أو متكئين على عصيهم أو راكبين على ظهور حميرهم. يتابعون رفرفة طائرات الهليكوبتر المتواصلة فوق الغابة التي تتخللها لطخات سوداء. يطارد القصف أسراب الطيور عبر السهل.

شمّر الحاج منوّر أسفل عباءته لينظر إلى ساقيه المنخولتين بلسعات الناموس. تشوّه فرحة لا توصف قسمات وجهه. قال موجّهاً إصبعه باتجاه منطقة العمليات:

- أتسمعون هذه السَمفونية. إن الشر يبقى دوماً بليداً مصرّاً على ارتكاب الذنوب. سنرى ماذا يوجَد فعلاً في بطن قتلة الأطفال والنساء.

وافق الحاج بارودي بحركة من الرأس. كاد طاقم

أسنانه ينزلق من فمه. تمتد ابتسامته من أذن إلى أخرى، ويقفز على وقع التفجيرات.

- سيغلقون أفواههم إلى الأبد.

ردّ شيخ في حنق:

- بعد فوات الأوان.

تدخّل زان قائلاً:

- الخير الذي يأتي مُتأخِّراً أفضل من الذي لا يأتي نهائياً. بدأنا نيأس .

قال قروي مفتخراً وهو يعذب أذني حماره في حركة آلية:

- منذ البداية، تشاءمت من هؤلاء الناس. من وجوههم المتسخة ندرك أن طريقهم لا يؤدي إلى الخير أبداً: لا ابتسامة ولا كلمة لطيفة. كانوا عابسين حتى في نومهم. الحاجب أخفض من الذهن. إنّ الخدمة الوحيدة التي يمكن أن يقدمها هؤلاء لأقربائهم هي تصفيتهم من الحياة. لا يعرفون إلا القتل والتخريب.

وافق زان بحركة متحمسة من الرأس واليدين.

التف سرب ناموس حول المصباح العمومي. تجاوزت الساعة منتصف الليل. ضاعفت النيران التي تلتهم غابات جبل الخوف من حرارة الليل. لم يرغب زان في النوم. كان يتمدّد على فراش في الشرفة، ويتأمل باب الفناء. بعيداً، كما النوتات الموسيقية

السيئة، لا تزال التفجيرات المتباعدة تدوي وسط صرير الحشرات. تمسك غاشيمات نفَسها. لا تعرف غاشيمات غير هذا. تتعايش مع رُهاب انغلاقها.

أما زان، فإنه هادئ البال. صَحيح أنه قصير القامة ولكنه واسع الذهن. سيعرف دوماً كيف يتفاوض حول حظوظه وفق تغير الوضعيات. دار على ظهره، شبّك أصابعه على بطنه اللحيم، فخوراً بسمنته الصاعدة. في السماء، تغمز له النجوم المتلألئة. توجد واحدة تتسلى أكثر من الأخريات. إن زان متأكد من أن الأمر يتعلق بنجمته الخاصة.

سمع زان دقات على الباب. بلا تردّد، ذهب ليفتحه. انهار عليه جسد مفكك، وجرّه في سقوطه. دفعه بقدميه، تشبث بالجدار كي يتخلص منه. أطلق شتيمة حينما رأى الدم على يديه وعلى عباءته. إن الرجل المطروح أرضاً مجروح. إنه يحتضر. غمغم القزم بعد أن تعرف على تاج عصمان:

- لم ينقص إلا أنت.

حاول الجريح الاتكاء على سلاحه، تمسّك بالباب ولكنه عجز عن النهوض. تأوّه قائلاً:

- أخرجني من هنا.

بهدوء تام، كما لو أن شيئاً لم يكن، أبعد الكلاشنيكوف عن الأمير أولاً، ثمّ نزع المشط وحرّك

المغلاق كي يسحب الرصاصة الموجودة داخل الفوهة، وبعد ذلك وضعها جميعا على المائدة وانحنى على تاج. قال ملاحظاً:

- في جسدك خمس قِطع حديدية على الأقل. ليس لديك أية قوة لتسهر طويلاً هذه الليلة.

- اذهب وأحضر الطبيب إدريس.

- إدريس بيطري جيد، ولكنه ليس رباً. لا أرى كيف يمكنه أن يُعيد إصلاحك من جديد.

تنهد تاج بنبرة مرتجفة وقال:

- أتوسل إليك، لا تُضيِّع الوقت.

- مولاي نعيم محاصرة.

- دبّر رأسك...

كادَت صرخته أن تصرعه. استسلم تاج قليلاً قبل أن يستعيد أنفاسه. بَذَل مجهوداً جباراً كي يتمكن من الجلوس، ويسند ظهره إلى الجدار، شاحباً ومرتعداً، قبل أن يغمض عينيه كي يستريح. أزاح زان سترته كي يتفحّص الجرح.

- أحُححم... الجرح قذر... قذر...

- الطبيب... بسرعة...

اضطر زان إلى الاقتراب من أذن المحتضر كي يسمعه.

- فوراً يا أمير، فوراً. احذر فقط تشويه الأرضية بفضلاتك.

تظاهر زان بالخروج بحثاً عن الطبيب.

في الزقاق، جلس على بلاطة، أشعل سيجارة وفكّر في ما ينبغي أن يفعله. بعد نفحات طويلة، قرّر أن لا يفعل شيئاً. دخّن سيجارته بهدوء، عدّ النجوم، ثمّ عاد إلى جانب الجريح. جلس على المائدة وقال كاذباً:

- بعثت شخصاً يبحث عن الطبيب. لا تَخَف، إنه من المتعاطفين مع الجبهة. سيكون إدريس هنا قَبْل نصف ساعة.

شكره تاج بحركة رأس خفيفة. تأخَّرَت عيناه الذابلتان على الجرح المتورم والمفتوح على صدره، ثم انتقلتا تبحثان عن عيني زان المنشغلتين بتفحص أظفاره أكثر من الانتباه إلى الدم الذي بدأ يتجمد على الأرضية.

- كم الساعة؟

- لا أعرف.

- تقريباً؟

- ربما الواحدة صَباحاً، ربما الثانية إلا قليلاً. هل تنتظر أحداً؟

- الطبيب...

- توجد الحواجز في كلِ مكان.

رفَّت أهداب تاج.

- لم أعد أرى شيئاً.

- ربما بداية حول العين. منذ فترة طويلة وأنت تنظر إلى الأمور من الجهة الخاطئة.

- أُحِس بالبرد. غَطِّني.

- لستَ بحاجة إلى غطاء. كم عدد الناجين؟

لم يجد تاج النفَس الكافي للجواب.

- لا أحد؟

قال تاج بأن نعم بحركة العين.

- كان هذا متوقّعاً. في غاشيمات، لم يعد الناس ينتظرون منكم شيئاً. نظراً للترسانة المعدّة لمحاربتكم، أصبحتم في نظر أهل القرية في عداد الأموات، إن عاجلاً أم آجلاً. أن تجرّ قدميك إلى هنا، تعتبر معجزة حقيقية.

لم ينتبه تاج إلى تهكّم القزم. انكمش على جراحه، مترقباً أدنى صرير الباب آملاً أن يسمع وصول الطبيب.

قال زان وهو يحرك ساقيه في الفراغ:

- لن يأتي الطبيب.

قطّب تاج حاجبيه. شرح زان:

- لن يأتي إدريس. لم أبعث أحداً يبحث عنه.

- ماذا تريد أن تقول؟

تسلق زان الطاولة، قرفص، مشبكاً ذراعيه على ركبتيه.

- حينما كنت طفلاً، كنت أجلس دوماً بهذه الطريقة على سقف كوخنا. وأجلس ساعات طويلة على

هذه الهيئة. كانت أمي ترى أنني أُشبه طائراً صغيراً متآكلاً. لم يكن ذلك صحيحاً. كنت أريد أن أَصير مثل طائر العُقاب. كنت أراقب القرية من أعلى مِجثَمي مثلما يراقب الكاسر حصّته من الطرائد. في ذلك العمر، كنت أعرف أنني ولدت بصبر كاسر، ومهما كانت قوة طريدتي وطول حياتها، فسينتهي بها الأمر إلى الموت عند قدميّ. وأنت هنا، يا تاج عصمان، يا ابن عيسى العار، عند قدميّ.

لم يدرك تاج المعاني الدقيقة لأقوال القزم. اعتقد أنه يهذي.

حرك زان ذراعيه كما الطائر الكاسر قبل أن يتجمّد، في شكل كهنوتي غريب، يد معقوفة أمام الفم كي يرسم منقار الكاسر. إنه يُدرك صدى كل كلمة يتلفظ بها، وتوازن كل واحدة من حركاته. طفق خداه الممتلئان يرتعدان في تشنج ظاهر. ارتسمت على شفتيه التكشيرات الحاقدة. سلكت نبرته طريقاً تجاه أعماق أحشائه، قطعت حلقه مثل زوبعة سُمّ ولطخت تاج بعنف قيء:

- كنا طفلين صغيرَين مُهملين، يا تاج. كنتَ تَحْمل عار أبيك، وأنا أعيش عار القزم. شوّهتنا الآلهة وسخر منا البشر. كنا شخصَين مختلفين، حماقَتين مقززتين يرفضهما الجميع. كنتَ بحاجة إلى شخص. فكّرت أن أكون ذلك الشخص، وتمنيت بالمقابل أن تصبح أنت

الشخص الذي أنا بحاجة إليه. كنا قادرَين، نحن الاثنين، أن نتساند، أنت البهيمة البشعة وأنا البهيمة-الفُرجة. ولكنك خيّبت أملي. لم تكن حليفي. أنت أسوأ من الآخرين، يا تاج. كنتَ تستخدمني كما المنديل. كنْتَ تُجبرني على ارتداء الغندورة طوال السنة، حتى في الصيف، وتجرني من سوق إلى سوق كي تخفي في قلنسوتي الفواكه التي تختلسها. حينما يُقبَض علينا في حالة تلبس، تشير إلي بالإصبع وتتظاهر بالاستنكار في الوقت الذي أتلقى فيه الضرب المبرّح. وبعدما نفرّ بجلدَينا، تخطف مني الغنيمة ولا تترك لي حبة خردل. كنت أقول بأنك ستتعقل مع الزمن. ولكنك لم تتغيّر قيد أنملة. واصلت استخدامك لي، وخيانتك لي وجرح كبريائي. كنتُ حيوانك الذي لا يتعب أبداً، كبش الفداء، عركتك، فكرهتك مثلما لا يمكنك أن تتصوّر.

- كنا طفلين، يا زان.

- بالضبط يا تاج. كنا طفلين ضعيفين بائسين، عاجزين عن الدفاع عن نفسينا، وعاجزين حتى عن الفهم. إذا كنتَ أنت لم تسامح، فكيف تحب لي أن أسامح من جهتي؟

- شيء مثير للسخرية يا زان. في تلك الفترة، لم يكن بمقدوري أن أغرف. ربّما كنت قاسياً شيئاً ما معك، ولكن دون قصد الإساءة إليك، أقسم لك. لم أكن أعرف كيف أحبك. لم أكن أعرف معنى الحب.

أما الباقي، فليس الأمر هو نفسه. أنا لا أنتقم، لا. أنا أكافح من أجل مُثل عليا.

- تَسْس... تَسْس... أنا لست مريدك. لا تلعبها عليّ. أشخاص مثلك ومثلي لا يملكون مثلاً عليا. يكفي لذرائع بسيطة أن تهيّجنا. أنا متأكّد بأنك لا تؤمن حتى بالله.

اختنق تاج. تاهَت يداه، خدشتا الأرضية، جُرحتا.

- فكّر في ما جعلته منك، اليوم: الثروة التي ساعدتك على جمعها، المنزل، القطعة الأرضية، المَخْبزة...

قهقه زان باحتقار:

- أتعرف لماذا الأقزام صِغار، يا تاج؟ لأنهم يقضون معظم أوقاتهم في المكر والحيلة عوضاً عن الدفع. منذ البداية، عرفت أنك الحصان الرابح، فرهنت مصيري عليك. كنتَ خاتمي السليماني، أديرك في إصبعي حسب أهوائي ورغباتي. لم تكن إلا بَيْدقاً يا تاج هذا كل ما في الأمر. الآن، وقد اسْتَهلكت كل المنافع الموجودة فيك، يجب أن أتخلص من الجيفة.

حاول تاج الوقوف. غادرته آخر قواه. سقط ضد الجدار، الصدر يوجعه والوجه يعذّبه.

- أنت ميت يا تاج. بدأت الروائح النتنة تنبعث من جثتك.

- ماذا تنوي فعله؟

- إن رأسك مطلوب مقابل مكافأة ضخمة. يجب

أن آخذها، هذا أقل عرفان تجاه الأصدقاء. أما الباقي، فيتتالى دون عناء. غداً لن يكون إلا اسم واحد على جميع الألسنة: زان، البطل زان، زان الذي قضى على عصمان تاج الدين، خليفة القيامة.

- حسبتك من جهتي.

- نحن في بلد ديمقراطي يا حبيبي: على كل واحد أن يدافع عن مصالحه.

قال تاج باختناق:

- يا كلب.

- لِمَ تلوم الكلاب يا ابن عيسى العار؟ الكلاب ليست لها أفكار مسبقة. ألا تعتبر أعز أصدقائنا، ومع ذلك نستبسل في ربطها في وجارها وتكليفها حراسة أسِرَّتنا؟ بما أننا لم نعرف كيف نستحقها، فلا ينبغي أن نستحق معاملة أفضل من معاملتنا لها.

رمى تاج رأسه إلى الجدار في تأوّه شديد. جَحظت عيناه. ارتجت رقبته تحت تشنج أخير. تضبّب بصره حينما انزلق من فمه خيط دم رقيق. انزلق جانباً ببطء وكفّ عن التحرك.

من أعلى مَجْثمه، رفع زان صدره واستعدّ لنشر جناحيه كجناحي كاسر على الجثة الهامدة عند قدميه.

النهاية

صدر للمؤلف
في سلسلة فسيفساء
عن دار الفارابي وسيديا

الصدمة، 2007.

أشباح الجحيم، 2007.

سنونوات كابول، 2007.

مكر الكلمات، 2011.

القريبة كاف، 2011.

خرفان المولى

غاشيمات قرية جزائرية: يتعارف أهلها منذ الطفولة، يعيشون حياتهم البسيطة، يتصارعون من أجل لقمة العيش، يتغايرون، يراقب بعضهم بعضاً. يتنافس الشبان بسرية لينالوا حظوة فتاة جميلة. يكرهون الذين نجحوا في تغيير حياتهم، كما يمقتون أولئك الذين بقوا في البؤس. يختنق الجميع تحت قيد تقاليد بالية، ولا يتأثر أهلها بما يحدث بعيداً عنهم، في العاصمة.

ولكن عودة أحد أبنائهم من الأصوليين المتزمتين كانت كافية كي تغرق البلدة في جرائم جماعية، غذّتها الأحقاد السابقة الدفينة والضغائن المتعددة. هكذا، رويداً رويداً، يتحوّل فتيان مسالمون، هادئون، إلى قتلة، ينشرون الرعب بين ذويهم.

ياسمينة خضرا كاتب جزائري طبقت شُهرته الآفاق في السنوات الأخيرة، وقد تُرجمت رواياته إلى أكثر من عشرين لغة. ويعرفه قرّاء العربية بفضل روايات «الصدمة، سنونوات كابول، أشباح الجحيم ...». إنه يكشف، التاريخ المعاصر دون هوادة ويناضل من أجل انتصار الحوار الحضاري بين الشرق والغرب. في رواية «خرفان المولى»، يسافر بالقارئ إلى قلب المأساة الجزائرية، حيث يصف ويفكك آلية الإرهاب الإسلاموي، ويحكي انحراف شبيبة كفّت عن الحلم وقطعت صلاتها مع العالم لتبدأ عملية تدمير الذات بخوض حرب ضد نفسها ومجتمعها.

ترجمة: محمد ساري


ISBN 978-9953-71-473-8
9 789953 714738